سجَين زندا

١٤

سجَين زندا

بقلم : عادل الغضبان
عن: أنتونى هـــوب

الطبعة السادسة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.م.ع.

١

جلستُ ذات صباح أتناولُ طعام الإفطار مع شقيقي "روبرت" وزوجتة "روز" الجميلة الفتيّة فقالت لي:

ــ"حتَّامَ يا " رودلف" تبقى عبدَ الفراغ؟ هلاّ فكرتَ في أن تقوم بعمل من الأعمال؟!" فقلت:

ــ (يا عزيزتي "روز"، لماذا تريدين أن أقوم بعمل من الأعمال) ؟

هل سمعتي يوماً أشكو من حالي وأتبرّم ؟ إني لعلى حالٍ يغبطني عليها أكثر الناس : فمواردي المالية تفي أو تكاد بمطالبي , وحاجاتي ومقامي الاجتماعي رفيعٌ خطير, ألستُ شقيق اللورد "برلسدون" ونسيب زوجته اللادى

"برلسدون" أجمل سيّدة في انجلترا ؟ أفلا يكفيني كل هذا ؟" فقالت

ـــ "لقد بلغتَ التاسعة والعشرين من عمرك , وما زلت عاطلاً من العمل ! " فقلت:

ـــ (إنه تَرفٌ تعرِفه أسرتنا وتستطيعه....)

وخُيّل إلى نسيبتي الفتّانة أنى أغمِز نسبهَا , فما كانت أسرتها , على غِناها وثرائها , من مستوى أسرتنا الاجتماعي. فقالت في شيء من الاحتداد.

ـــ (إنّ أسرتكم العظيمة لا يخلو تاريخها من أشياء.....) فقاطعتها وقد أدركتُ مرماها ومغمزها وقلت:

ـــ (إني سعيدٌ بشَعري الأصهب[1]...) فقالت:

ـــ(أنا لا أعيّرك به....) فقال أخي :

ـــ (إن الشعر الأصهب يظهر في أسرتنا بين الجيل والجيل ,وكذلك الأنف المستقيم , ولقد جمعت الوراثة في "رودلف" الأنف والشعر.)

فقالت:

ـــ(ما أثقلَ أن يشُذّ الإنسان عن قسَمَات أسرته...) فقلت وقد أردت أن أُمعن في مضايقتها ومداعبتها:

ـــ(يرضيني كلَّ الرِّضي أن أكون من سُلالة آل "إلفبرج".

---

(١) الشعر الأصهب : الأشقر الضارب إلى الحمرة.

ولابد أن اشرح للقارئ لماذا تضيق زوجه أخي ذَرْعاً بشعري وأنفى ، ولماذا انتسبتُ إلى آل "إلفبرج").

(إن أسرة "إلفبرج" هي الأسرة المالكة في "روريتانيا" ، وبينها وبين أسرتنا نسبٌ قديم ، ذلك أنه في عهد الملكة "أليصابات" ، قدم إلى إنجلترا رجلٌ رَثُّ الثياب ولكنه نبيل الملامح والإشارة ، وطلب من الملكة الرّعاية والحماية ، وتميّز في بَلاطها بأنفة المستقيم الجميل ، وشعره الكثيف الأصهب؛ فما عتَّم أن كسَب ثقة الملكة بأحكامه الصائبة وآرائه السديدة. ولم يكن أحدٌ يعرف عن أصله شيئاً، ولا عن السَّبب الذي دفعه إلى النزول بإنجلترا. فأقام فيها ، وتزوّج بإنجليزية ، وأقطْعته الملكة الأرَضين الواسعة فأصبح" كونت دي راسنديل " ثم لورد" برلسدون" .

وقبْل أن يلفِظ أنفاسه الأخيرة ، أفضى إلى زوجته بسرّه ، وأطلعها على الأصل الذي ينحدر منه ، وقال لها إنه من أسرة " إلفبرج" المتسنّمة عرش "روريتانيا"، وإنه الابن الثاني للملك "رودلف" الأول مؤسّس تلك الأسرة ، وأخبرها فيما أخبرها به، أن أباه قد نصّ في وصيّته على أن يخلُفَه على العرش بدلاً من أخية الأكبر ، لأنه رآه أجدر بذلك، فقد كان أخوه رجلاً شرِس الأخلاق ، قبيح السِّيرة، فثارت ثائرة أخيه لما وقف على مضمون الوصّية، فدبّر له مكيدة يغتاله فيها ولكنه نجا من تلك المؤامرة، وهرب من بلاده ، والتجأ إلى إنجلترا . وطغى أخوه وتجبّر ، وسار أسوأ

سيرة حتى خلفَه ابنه فوفَّر للشَّعب الأمن والعدل والرَّخاء" .

ذلك هو تاريخ أسرتنا, ولا تزال أسرة "إلفبرج" يتوارث أفرادها عرش "روريتانيا" حتى اليوم .

أعود بعد هذا الاستطراد إلى زوجه أخي , فقد استأنفت حديثها وقالت :

ـــ (صديقنا "السير جاكوب بورودال" سيعيَّن في خلال ستة أشهر سفيراً في إحدى الدول, وقد أخبرني "روبرت " أنه يسعدة أن يعيّنك ملحقاً بتلك السفارة , فهلاّ قبلتَ يا "رودلف" إكراماً لي وإسعادًا لخاطري....!)

قدَرْتُ هذا الاهتمام البالغ تحُفتّنى به زوجة أخي , فتملّكني الخجل وأحببت أن أُدخل على قلبها شيئاً من السّرور فقلت :

ـــ(يا عزيزتي "روز" إذا لم يطرأ علىَّ طارئ يشغَلني في خلال ستة أشهر فسوف أقبل راضياً هذا المنصِب...) فأشرق وجهها وقالت :

ـــ(ما ألْطفَك يا "رودلف" إنك لنَعِمْ اَلفتى الظّريف اللّطيف!)

قطعتُ على نفسي العهد بأن التحق بالمنصِب الذي سيعرِضه علىّ صديقنا السّفير , ولكن لا يزال لدىَّ متّسع من الوقت , فسّتة اشهر ليست بالزّمن القليل , فخطر لي أن أقوم برحلةٍ إلى "روريتانيا " ولعلي أول فرد من أفراد أسرتنا يقوم بمثل هذه الرحلة , فقد شاء أبى وسلفاؤه من قبلُ , أن نتجنّب السفر إلى ذلك البلد , ونكون منه على طَرَفِ البُعْد والهجران.

شغَل ذهني هذا الخاطر فتمسّكت به, ولماذا لا أزور هذا البلد الذي كان له شأن أيّ شأن في تاريخ أوربا ؟ ولا سيّما أنى قد سمعت أطيب الأنباء عن ملكة الشاب الذي سيتبوّأ العرش بعد أسبوعين , فصمّمت على أن اشهد حفلة التتويج وما سيعقُبه من أعياد ومآدب .

نهضت عن المائدة , وودّعت شقيقي وزوجته, وذهبت أُعدّ العُدة لتحقيق هذه الرّغبة , وزعمت أنى مسافر إلى بلاد "التيرول" لأدرس عادات القوم وأحوالهم السياسية والاجتماعية والثقافية ,وأضع في ذلك كتاباً . فُسرَّ أخي كل السرور وقال لي إن التأليف تمهيدٌ حسن للدخول في الحياة السياسية . أما زوجتة فقد أعجبتها الفكرة وطِربت لها , فدعتْ لي بالتّوفيق والنّجاح .

٢

غادرت إنجلترا ، ونزلت بباريس ، فقابلت فيها السفير البريطاني وصديقاً لي يدعى "برتران" عُرف عنه أنه أديبٌ شاعر ، فصحباني إلى زيارة بعض المعالم الباريسية . وساءني أن ألمح في الصديق الشاعر آثار وجوم وكآبة ، فحاولت أن أستشفَّ سرّه ، فعلمت من السفير أن صديقنا هذا يُحب أرملة شابّة من عِلْى القوم ، تدعى "أنطوانيت دي موبان" ، وأنه يَودّ الاقتران بها ولكن اختلاف طبقتيهما الاجتماعية يحول دون ذلك ، فهي مطمح أنظار العظماء والكبراء في فرنسا وفى غير فرنسا من البلاد الأوربية لما هي عليه من الغنى والشباب والجمال .

وكان السفير لا يُفتَأ يداعب صديقنا الشاعر ، ويتخذ من غرامه

"بمدام دي موبان" وسيلة للمباعثة حتى يصرفه عن مطمحٍ لن يجنى منه غير الخيبة واليأس.

وبينما كنا مجتمعين في منزل صديقنا "برتران" , نشرب القهوة ونتجاذب أطراف الحديث , عرض السفير لذكر "مدام دي موبان" فقال:

ـــ(لقد زارها بالأمس الدوّق "ميكل دي سترلسو ") فقلت:

ـــ(ومن يكون هذا الدوّق)؟ فقال السفير:

ـــ(إنه أخو ملك "روريتانيا" من زواج ثان غير متكافئ , فأمّ الدوّق من أسرة متواضعة , ولذلك كثر اللغط هناك لما رفعه أبوه إلى رتبة الدوقية وجعله دوقٍ . "سترلسو" وهى عاصمة "روريتانيا")فقال "برتران" :

ـــ (ألا يزال هذا الدوّق بباريس ؟) فقال السفير:

ـــ(كلا . لقد عاد إلى" روريتانيا" ليشهد حفل تتويج أخيه "رودلف" الخامس وإن يكن هذا التتويج لا يرضيه ولا يسّره!)

وفى مساء اليوم التالي ركبت القطار إلى مدينة "درسد" ولم أقل لسفيرنا إن وجهتي عاصمة "روريتانيا" فلو كنت قلت له ذلك لكان الخبر قد وصل بعد زمنٍ قليل إلى إنجلترا , فسفيرنا رجلٌ يحب الأنباء وإذاعتها.

واتّفق لي قبل ركوب القطار أن أرى في المحطة سيدةً جميلة أنيقة المظهر تبلغ الثلاثين من العمر ويُحفّ حولها جمع من الناس جاءوا

ليودّعوها , فعرفت أنها "مدام دي موبان" ولقد ركبت هي أيضاً القطار المسافر إلى "درسد" فتبسمت فيما بيني وبين نفسي لهذا الاتفاق , فقد كانت السيدة محور حديثنا أمس وها أنا أراها اليوم رؤية العين....

وصل بنا القطار إلى "درسد" ثم ركبنا قطاراً آخر متجهاً إلى عاصمة "روريتانيا" كأنما كانت وجهتنا نحن الاثنين واحدة . وفى أثناء السفر لم يفاتح أحدنا الآخر بأي حديث كان وإنما كنا نتخالس النظر بين حين وحين.

ولما بلغنا حدود "روريتانيا" رأيت موظف الجمرك يطيل التحديق في وجهي مدهوشاً مستغرباً , فأدركت أن سبب دهشته كان هذا الشبه العظيم بيني وبين آل" إلفبرج" , فزال من نفسي كل شكّ في أنى أنتمي إلى هذه الأسرة.

ولقد علمتُ من الصحف التي اشتريتها أن التتويج قد قُدّم موعده, وتقرّر أن يكون بعد يومين , وأن العاصمة قائمة على قدم وساق استعداداً لذلك اليوم العظيم , وأن الناس يتوافدون إليها من كلِّ حَدَب وصَوْب ليشهدوا أعياد التتويج .

واستمرّ القطار يسير بنا من ضاحيةٍ إلى أخرى حتى وصل عند الغروب إلى مدينة "زندا" , وهى مدينة صغيرة تبعد عن العاصمة نحواً من ١٥ فرسخاً فقلت في نفسي إن العاصمة لابدّ أن تكون مزدحمة بالسّيّاح

والوافدين , فقد يصعب عليّ أن أجد غرفة مريحة في فندق من فنادقها , فقرّرت أن أنزل بمدينة "زندا" وأن أقضى سحابة النهار التالي في زيارة غاباتها وجبالها , ورؤية قصرها الشهير ثم أنطلق بعد ذلك إلى العاصمة.

نزلت في محطة "زندا" وانتظرت على الرّصيف قليلاً حتى يستأنف القطار سيره فأتجه إلى المدينة , وما هي إلا دقائق معدودات حتى سار القطار بمن بقى فيه من الرّكاب , ولمحت بينهم "مدام دي موبان" فقلت إنها لا شكّ تقصد العاصمة .

واستقرّ بي المطاف في فندق صغير تملكه سّيدة عجوز وابنتان لها على غاية من الأدب والجمال , فرحّبت الأم وابنتاها بي كلَّ الترحيب , ولم تكتم هذه السيدة العجوز ميلها إلى الدوق "ميكل دي سترلسو" الذي جعلته وصّية الملك الراحل سيّد "زندا" بأسرها : أرضَيها وقصرها القائم على قمّة جبل لا يبعد عن الفندق الذي نزلت فيه أكثر من ميل واحد . ولم تتورع تلك السيدة أيضاً عن أن تفصح عن رأيها مُؤْثرةً الدّوق على الملك فالدوق واحد منهم يعرفونه ويحبّونه , في حين قضى الملك أغلب أيامه متغرّباً عن بلده فليس في "زندا" إلا نفرٌ قليل قُدَّر له أن يراه ويعرفه .

كان هذا رأى صاحبة الفندق أبدته لي في صراحةٍ عجيبة , وزادت عليه إحدى الابنتين قائلة :

ـــ(ثم يقالُ يا سيدي إنه حلق لحيته وشاربيه حتى أصبح لا يعرفه أحد....) فقالت الأمّ مذهولة :

ـ(أحَلَق لحيته وشاربيه ؟ ! من قال ذلك؟) فقالت الابنة :

ـ(قاله "حنا" حارس غابة الدوق فقد رأى الملك....) فقالت الأم موجهة إلىّ الخطاب:

ـ(نعم .... صحيح..... إن الملك يا سيدي نزيل "زندا" في هذه الأيام . إنه في "جناح الصيد" القائم في وسط الغابة , فمن هنا سيذهب بعد غد إلى العاصمة ليتوج ملكاً على "روريتانيا" . آه ! ليت الدوق يُتوَّج بدله!) فصاحت الفتاتان في أمهما :

ـ(حَذار يا أمّ !) فقالت الأم :

ـ (لست أنا وحدي من يرى هذا الرأي ويتمنى هذه الأمنية!)

فقالت الفتاه الصغرى وكانت شقراء جميلة:

ـ(أما أنا فإني أكره الدوق الأسود.... فهو ليس من الأسرة المالكة...إني أريد ملكاً على "روريتانيا" يكون من سلالة آل " إلفبرج" ويكون متميزا بشعره الأصهب...يقال أن ملكنا ذو شعر أصهب جميل كشعرك يا سيدي .....) فقالت الأم:

ـ (لقد دعا الدوق أخاه لقضاء أيام في "زندا " وسيرحل بعد غد إلى العاصمة ولقد سبقه الدوق إليها ليُعد مُعَدّات استقباله وتتويجه .) فقلت:

ـ(أنهما إذن لعلى وفاق ووئام .) فقالت الأم:

ـ(إنه لكذلك ." فقالت الفتاه الشقراء عدوّة الدوق :

ـ إنهما متحابان كما يمكن أن يتحابَّ رجلان يطمعان في منصب

واحد ويطمحان إلى واحد ويطمحان إلى تزوّج امرأة واحدة .)

فنَهرت الأم ابنتها فازددت أنا فضولاً فسألت فتاتي الشقراء :

ــ(وَمنْ هذه الفتاه التي يتنازعان عليها ؟) فقالت:

ــ(يعلم الناس أجمع أن الدوق الأسود ــ ونسميه هكذا يا سيدي لسمرة بَشَرته ولأنه ليس من سلالة "إلفبرج" الأصيلة ــ يبيع نفسه للشيطان في سبيل أن يتزوج الأميرة "فلافيا" وارثة عرش "روريتانيا" فالدوق الأسود.....)

وسكتت الفتاه فجأة ووقفت الكلمات حَيْرَى في شفتيها عند ما دخل الغرفة رجل وهو يقول بصوتٍ خَشِن :

ــ(منْ هذا الذي يتحدث يتحدث عن الدوق الأسود في مدينة سيادته؟!) فزال اضطراب الفتاه لما رأت القادم وقالت :

ــ(إنه صديقنا "حنا" فلن يَشِي بي !.....)

فنهضت الفتاتان وأمهما يرحّبن بالقادم ويخبرنه , وهنّ مشيرات إلىّ , أنْ نزل بالفندق ضيف جديد في طريقه إلى العاصمة لشهود مهرجان التتويج , فحّياني الرجل وهو ينظر إلىّ نظراتٍ غريبة فاحصة فقالت له الفتاة الشقراء مداعبة :

ــ(انظر يا عزيزي "حنا" إلى شعر ضيفنا , إنه اللون الذي تحبه...)

فلم يُحر الرجل جواباً , وبقى يحدّق إلىّ , فقمت مستأذناً في الانصراف

إلى غرفتّي.

وخرجت من الغرفة فلحقت بي الفتاه الشقراء لتضئ لي بمصباحها الطريق إلى غرفتّي , فقالت لي وهى منصرفة :

ــ(ما أجملَ شعرك يا سيدي ! إن هذا اللون هو الذي أحُبه وأوُثره....إنه اللون الأصيل لشعر أسرة "إلفبرج".....)

٣

نهضتُ في الصّباح مبكراً , فتناولت طعام الإفطار وعلمت من فتاتي الشقراء أن وراء الغابة التي تفضي إلى قصر "زندا" محطة أخرى لسكة الحديد , فقرّرت أن أتنزّه في الغابة , وأن ألقى نظرة على ذلك القصر ثم أستقلّ القطار من تلك المحطة.

وأوصيت صاحبة الفندق أن تتولى إرسال حقائبي إلى عنوانٍ ذكرتْه لي في العاصمة , فودّعتها وودّعت ابنتيها , ووعدتهنّ بأن أعرّج عليهنّ في عودتي من العاصمة , وخرجت أطوف في تلك الغابة مُصَعّداً في الهضاب , متجهاً إلى قصر "زندا".

وبعد مسير نصف ساعة , رأيتُني أواجه ذلك القصر فإذا هو قلعةٌ

قديمة ذات جلال ومَنْعة , تتألف من عدّة أجنحة . ورأيت وراء القلعة العتيقة جناحاً حديثاً تفصله عنها هُوّة عريضة عميقة , ويصِله بها جسرٌ متحّرك. فإذا رفع الجسر انفصلت القلعة عن كل ما يحيط بها .

وانحدرتُ من الهَضْبَة إلى الغابة الملاصقة للقصر الحديث , فمشيت فيها أخترق أشجارها الكثيفة حتى وجدت جذْع شجرة منطرحاً الى الأرض كأنه يدعوني الى الجلوس عليه , فجلست ومددت ساَقيَّ , وأشعلت لفيفة من التّبغ , وأخذت أدخنها وأنا مستسلم الى التفكير والأحلام في ذلك الجو الفاتن الساحر , حتى إذا فرَغت من تدخين اللفيفة لم أمنع نفسي من إغفاءة لذيذة في ظل تلك الأشجار المتشابكة الغصون والأوراق , ولكني صحوت بعد قليل على صوتٍ أجّش يقول :

ـــ(وحقَّ السماء لو كان الرجل حليقاً لقلت إنه الملك.....)

فتحت عينيَّ فرأيت رجلين بملابس الصيد يطيلان النظر الىَّ في دهشة واستغراب , وكان أحدهما ضخم الجسم , قصير القامة , مستدير الرأس , أغبر الشّاربين , صغير العينين , وكان الثاني في ريعان الشباب , نحيف القامة , أسمر البَشَرة , جميل المظهر . فتقدّم أكبرهما منى , فوثبت واقفاً وسمعته يقول لرفيقه الشاب : "القامة أيضاً هي هي " ثم حياني بأدبٍ وقال :

ـــ(هل لي أن أسألك عن اسمك يا سيّدي ؟) فقلت :

ـــ(ماذا لو ضربتما لي يا سّيديَّ المثل الصالح وذكرتما لي أولاً

اسميكما !) فاقترب الشاب منى وقال :

ــ(رفيقي هو الكولونيل "سبت" وأنا " فِرِ تْزفون تارلنهايم" وكلانا في خدمة ملك) روريتانيا" فقلت :

ــ(أما أنا فاسمي " رودلف راسنديل" وإني قادم من إنجلترا , وقد قضيت سنة أو سنتين في خدمة الملكة " فيكتوريا")

فمد الشاب يده إلىّ مصافحاً وقال :

ــ (نحن إذن إخوة في السّلاح ...)

وكان أكبر الرجلين يتمتم بين شفتيه : راسنديل..... راسنديل ثم تألق وجهه والتفت إلىّ وقال :

ــ(أتكون يا سّيدي من أسرة " برلسدون" ؟) فقلت :

ــ(إن رأسك يفصح عنك ... أليس كذلك يا " فرتز" ؟) فقلت:

ــ(يلوح لي أن قصَّة أسرتنا معروفة هنا أيضا...) فقال : "سبت":

ــ(كلّ المعرفة ... فلو أقمت بيننا قليلاً لآمن بالقصة وصدّقها جميع سكان "روريتانيا").

وفى تلك اللحظة سمعنا صوتاً يصيح :

ــ("فرتز! فرتز!" أين أنت ؟)

فاضطرب "فرتز" وقال :

ــ(الملك ! الملك !)

وطلع علينا شاب وسيم , نظر الىّ ونظرت إليه في دهشة بادية , فلولا لحيتّي وشارباى ومنظر عظمته لقلت إنه أنا ..... وبعد هذه المفاجأة التي لزم كلانا فيها الصمت , نزعت قبعتي وانحنيت مسلّماً بأدب واحتشام , ففك سلامي عقدة لسانه وقال :

ــ(" فرتزر" ! من الرجل ؟)

وقبل أن يجيبه " فرتز" اقترب منه "سبت" أخذ يحدثه بصوت منخفض , والملك لا يفتأ في أثناء الحديث يرمقني بنظراته حتى إذا أنهى "سبت" ما أراد أن ينهيه إليه , قهقة ضاحكا وأقبل على يقول :

ــ (ما أجمل هذا اللقاء يا أبن عمى العزيز ؛ أهلا وسهلا بك ضيفا كريما بيننا...) فقلت:

ــ(قدمت إلى هذه البلاد يا مولاي لأشهد حفل التتويج.)

وعاد الملك الى الضحك بنفس سمحة رضية , ثم قال يخاطب ضابطيه :

ــ(بوّدي أن أرى سَحْنة الدوق " ميكل " عندما يعلم أننا اثنان لا واحد.....) فقال " فرتز" وقد بدت على وجهه علامات الجدّ والاهتمام:

ــ(ليس من الحكمة أن يزور السيد "راسنديل" العاصمة في هذين اليومين !) والتفت الملك الى " سبت" متسائلاً:

ــ(وأنت ماذا تقول ؟) فقال " سبت":

ــ(أقول ما قاله زميلي "فرتز") . فقلت على الفور:

ــ(إذن أرحل عن "روريتانيا" في هذا اليوم !) فقال الملك:

ـ(معاذَ الله....أنت ضيفي الليلة.... سنتعشّى معاً , وليكن غداً ما يكون ! إن المرء لا يلقى كلّ يوم ابن عمَّ له.... صحيح أنى لست في قصري غير أن أخي " ميكل " قد وضع تحت تصرّفي مسكناً من مساكنه فستنزل فيه على الرّحب والسّعة...)

وتأبّط ذراعي ومشى بي , وأشار الى ضابطية بأن يتبعانا , فسرْنا جميعاً نحو نصف ساعة في تلك الغابة الجميلة. وعند خروجنا منها كنا إزاء مبنى متواضع يتألف من طَبَقة واحدة مشيّدة بالخشب , فكان جناح الصيد الذي استضيف فيه الملك.

فما إنْ وصلنا إلينا حتى حفّ إلى استقبالنا خادم قصير القامة يدعى يوسف , وكان خادم الملك الخاص , ثم خادمة عجوز عرفت أنها أم "حنا" حارس غابة الدوق , ولم يكن في ذلك الجناح غيرهما من الخدم , فأصدر الملك أمره بأن يعد لنا طعام خفيف عند الظهر , أما العشاء فيجب أن يكون مأدبة فاخرة حافلة بأطايب الطعام والشراب.

وقضينا النهار كله جائلين تارة في الغابات , ومسترحين أخرى في جناح الصيد , نتبادل متنوّع الأحاديث , جادّين فيها أو هازلين حتى أقبل المساء , فجلسنا الى المائدة نتناول طعام العشاء.

وكان الخادم يوسف يقوم على خدمتنا ويتحفنا بزجاجات النبيذ واحدةً بعد أخرى , وكان الملك أكثرنا شراباً , فبدأت الخمر تلعب برأسه , والضابطان ينظران إليه بقلقٍ واضطراب حتى تجرّأ " فرتز" فقال له :

ـ(اذكر يا مولاي أنك في صباح غد.....) فقاطعه الملك قائلاً:

ـ"تذكّرْ أنك ستتقدَّ منى بساعتين , فعندي إذن ساعتين أستريح فيهما."

ولاحظ "فرتز" أنني لم أفهم ما عنى الملك فقال:

ـ(سأذهب أنا والكولونيل " سبت" في الساعة السادسة من صباح غد الى محطة " زندا" , وسنعود منها مع حرس الشرف في الساعة الثامنة لنكون في معيّة الملك الى المحطة....) فقال الملك ولسانه يتلعثم:

ـ(حسن .... حسن.... لنشرب آخر زجاجة.....)

شرب الملك وشربت معه حتى بدأت أنا أيضا أشعر بالنشوة تدبّ في مفاصلي , فما كاد الملك يشرب أخرُجرعة من الزجاجة حتى قدم علينا الخادم يوسف وفى يدة زجاجة نبيذ يعلوها الغبار فقال :

ـ(كلّفني مولاي الدوق أخو جلالتكم أن أقدّم لكم هذه الزجاجة من النبيذ المعتق عندما تفرغون من شراب بقيّة الأصناف , وطلب الىّ أن أرجو من جلالتكم شُربْها في صحته وعربونا على ولائه لجلاتكم.....)

فصاح الملك بلسانٍ معقود:

ـ(يا صاحبيّ ويا ابن عمى ! اطلبوا منى ما تشاءون ولو نصف مملكتي , ولكن لا تطلبوا منى نقطة واحدة من هذا الشراب السحري....

إني سأشرب الزجاجة كلها في صحة أخي الدوق الأسود....)

وعلى الأثر أمسك الملك بالزجاجة ورفعها الى فمه وأفرغها دفعة واحدة في جوفه, ثم رمى بها الى إحدى زوايا الغرفة . ورأيناه في الحال قد شبك ذراعيه فوق المائدة وأسند إليهما رأسه الثقيل.....

٤

لا أدرى كم نُمْت في تلك الليلة بعد الإفراط في الشراب ، ولكني أدرى أنني صحوتَ فجأة ورأيتني مبلّلا بالماء من رأسي إلى أخَمص قدمَيّ ، ووجدت أمامي "سبت" و " فرتز " تعلو وجهيهما صُفْرة كصفرة الأموات.

فوثبت واقفاً على قدمَيّ وصرخت فيهما:

ــ(إن مُزاحكما ثقيل بارد يا سيدَيّ !) فقال لي " سبت" :

ــ(الوقت أضيَقُ من أن نقضيه في العتاب والمشادّة.... أيقظناك طويلاً فلم تستيقظ ، فعمَدْنا إلى الماء نرشّك به حتى تفيق وتصحو..... فالساعة الآن الخامسة ....) فقلت مغضباً:

ـ(لتكن الخامسة أو الخامسة عشرة.....) فقاطعني "فرتز" وأمسك بذراعي وهو يقول:

ـ(انظر يا عزيزي " راسنديلّ")

فنظرت حيث أشار , فرأيت الملك ممدَّدا إلى الأرض محتقن الوجه , تعلوه حُمْرة شديدة. وكان هو أيضاً مبلل الوجه والثياب فقال " سبت" :

ـ (فعلنا ما لا يفعل في سبيل إيقاظه ولكن على غير طائل .)

فركعت أمامه وجسست نبضه فإذا هو يضِرب ضَرباتٍ خفيفة , فنهضت وقلت :

ـ(ما من شكّ أن الزجاجة الأخيرة التي شربها كانت تحتوى على مخدر , فعلينا بطبيب في الحال .) فقال " فرتز":

ـ(إن أطباء كلية الطب بأجمعهم لا يستطيعوا أن يوقفوه على قدميه في الحال ليذهب الى العاصمة على ما هو مقرَّر , فلن يفيق قبل سبع ساعات أو عشر فأنا أعرف ما أقول ...) فقلت مضطرباً :

ـ"والتتويج؟!" فقال "فرتز":

ـ(يجب أن نذيع أن الملك مريض .) فقلت:

ـ(لا مندوحة من ذلك .) فقال "سبت":

ـ(إذا لم يتوَّج الملك في هذا اليوم فلن يتوَّج أبداً .) فقلت:

ـ(ولماذا ؟ ألا يمرض الملوك كما يمرض الناس ؟) فقال "سبت":

ـــ(إنك لا تدرى يا سيّدي النزاع الخفيّ بين الدوق والملك, كما أنك لا تدرى الى أين تصل مطامع الدوق ,فمصلحته أن يذيع عن الملك أسوأ الإشاعات , ولا يبعد أن يستغلّ هذه المكيدة التي دبّرها ليؤلّب الجيش والرعيّة على الملك , ويستوي على العرش بدلاً منه ..... فإذا لم يظهر الملك اليوم في العاصمة فقل عليه العفَاء والسّلام.....)

لزمنا جميعاَ الصمت , واستسلم كلٌّ منا إلى التفكير العميق حتى قطع "سبت" حبل السكوت وقال بلهجة خطيرة :

ـــ(أنا أومن بالعناية الإلهية , فهذه العناية هي التي أرسلتك إلينا يا سيّد "راسنديل")

فتراجعت قليلاً باديَ الاضطراب , في حين رفع "فرتز" رأسه والتمعت عيناه بنور الدّهشة والسرور معاً فقلت:

ـــ(هذا محال.... أتريدني يا سيّدي أن أحُلَّ محلَّ الملك ؟!.)

أي مصير ينتظرني إذا انكشف أمري ؟" فقال "سبت":

ـــ(إنها الفرصة الوحيدة لإنقاذ الملك.... وأُقسِم أنْ لو حلقتَ لحيتك وشاربيك لما عرفك أحد .... هل أنت خائف؟) فقلت:

ـــ(كلا يا سيدي ..... ولكن.....) فقال"سبت":

ـــ(ولكن ماذا؟ إذا لم يتوَّج الملك اليوم فسيكون نزيل السجن أو القبر أفلا تريد أن تنقذ حياته فضلا عن إنقاذ عرشه؟)

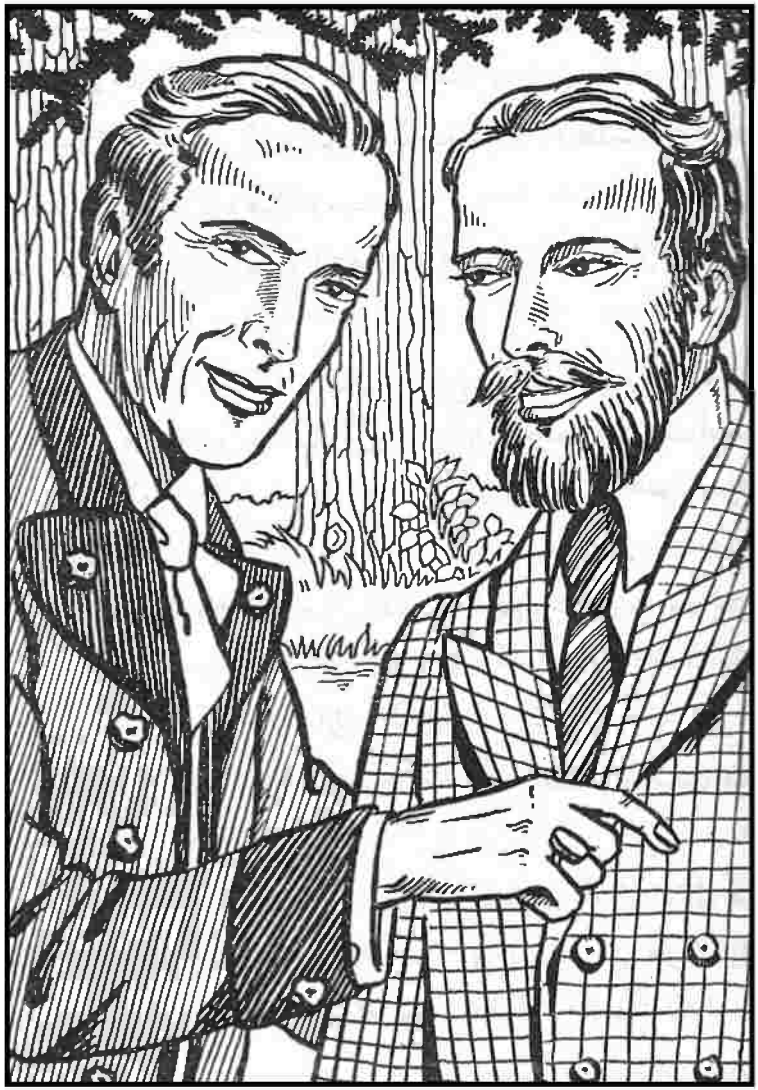

سكتُّ فسكت رفيقاى , وكان لا يُسمع في تلك الغرفة غير دقّات الساعة , وبعد دقيقة أو دقيقتين قال"سبت":

ــ(قلبي يحدّثني بأنك قابل ما اقترحته عليك.) فقلت:

ــ(إني لقابل!) فقال "سبت":

بعد حفل التتويج سينام الملك الليلة في قصره , فعلينا أن نقوم بما يأتي:

(يبقى "فرتز" في القصر ليحرس مخدع الملك , ونمتطى أنا وأنت جوادين فارهين ونطير بهما الى " زندا" ويكون الخادم يوسف قد أطلعه على جليّة الأمر, فأعود معه الى العاصمة , وتجتاز أنت الحدود بسرعة البرق .)

وأتبع "سبت" القول بالعمل , فنادى الخادم يوسف وأمره بأن يحلق لي لحيتي وشاربي , وأنهى إليه بما انتويتا , فتملّكه الذّعر والاضطراب . وبينما كان يقوم بمهمته سأل "فرتز" الكولونل "سبت":

ــ(وماذا تفعل بحرس الشرف؟ فقد حان الوقت لأن نذهب إليه ونعود به الى هنا .) فقال "سبت" :

ــ(كلا ! لن نذهب إليه , فلينتظر ما شاء أو ليأت الى هنا فيرى أن العصفور قد أفلت من القفص , ونكون نحن في طريقنا الى محطة أخرى نركب منها القطار الى العاصمة .) فقال "فرتز" :

ـ(والملك؟) فقال "سبت":

ـ(سنخفيه في القبو..... وسأقوم بهذا في الحال . وسأوصى الخادم يوسف بما يلزم .)

وانحنى على الملك فرفعه وخرج به من الغرفة , وكانت أمّ الحارس "حنا" واقفة عند الباب , فالتفتّ أنا إلى "فرتز" وسألته :

ـ(أتُراها سمعت ما دار بيننا من حديث ؟) فقال:

ـ(إن "سبت" كفيل بأن يخرسها .)

وبعد دقائق عاد "سبت" وقادني الى غرفة الملك , فلبست أحد ملابسه العسكرية وسألت "سبت" عن الخادمة العجوز فعرفت منه أنه حبسها في غرفة من غرف القبو , بعد أن قيّدها وسدّ فمها بمنديل كبير . ولما وضعت خوذة الملك على رأسي , وقدّم لي "سبت" السيف الملكي , أجال طَرْفه فيّ وتبسّم ابتسامة الواثق بما رأى ودّبر .

ودخل علينا "فرتز" مرتدياً بزّة قائد فئة في الحرس الملكي , وتوارى "سبت" قليلا وعاد هو أيضاً لابساً بزّته العسكرية برتبة كولونل في الحرس الملكي , وكانت الجياد قد أعُدت لنا فامتطيناها وسِرْنا بها نسابق الريح .

وكان "سبت" في أثناء السّير يطلعني على كل ما يجب أن أعرفه من تقاليد الأسرة المالكة والأنظمة الرسمية , ويصف لي الأشخاص المقرَّبين

إلى الملك وما هم عليه من أهواء وعادات , ويذكر لي كيف يجب أن أتصرّف مع كل واحد منهم , ووعدني بأن يكون الى جانبي مراقباً مرشداً.

بلغنا المحطة فحدّث ولا حرج عن اضطراب ناظرها لما عرف أن الملك قد غيّر خطّة السير إلى العاصمة . وعندما وصل القطار , ركبناه وسار بنا سيراً حثيثا إلى غايته , فنظرت في ساعتي ـــ ساعة الملك بطبيعة الحال ـــ فكانت الساعة الثامنة , وما زال القطار يجتاز الو هاد ويخترق النجاد حتى بدت لي أبراج الأجراس والكنائس في مدينة عظيمة فسمعت "سبت" يقول لي :

ـــ(هذه هي العاصمة يا صاحب الجلالة !)

ثم أخذ يدي ليجسّ نبضي فوجده يدُق ببعض السرعة فقلت :

ـــ(أوظننتَنى من صخرٍ يا هذا ؟) فقال :

ـــ(سوف تكون من صخر ..... وكيفما كان الأمر فسوف نصل قبل الموعد المحدد بساعة على الأقل , فيجب أن نرسل الرسل لنبلغ ولاة الشأن أن الملك قد حضر قبل الموعد المضروب ليخفوا إلى استقبالك ...)

ووقف القطار في المحطة , فسارع "سبت" و "فرتز" الى النزول منه والوقوف الى جانب الباب الذي سأنزل منه .

تركت مكاني في القطار وأنا أبتهل الى الله أن يأخذ بيدي في هذه

المهمة الخطيرة التي أقدمت عليها . وكان الجوع قد أخذ بتلابيب مَعدِتي ، فتوجّهت إلى مطعم المحطة باذراً الدهشة والفوضى في طريقي ، وكنت مع ذلك أسمع هُتاف الناس يبلغ عنان السماء وهم يصيحون :

عاش الملك ! عاش الملك !

٥

خرجت من المطعم يحرُسني "سبت" و " فرتز" , وقبل أن أجتاز عتبة الباب تفقّدت مسدّسي وسيفي على سبيل الحَيْطة والحذر , فرأيت كوكبةً من الضّباط الشبّان تنتظرني , وفى طليعتها شيخ طاعن في السنّ , يزدان صدره بعدد وافر من الأوسمة , فهمس " سبت" في أذني أنه المارشال "ستراكنز" . ووقف وراء المارشال رجل يرتدى معطفاً أرجوانياً عرفت من "سبت" أيضاً أنه وزير الدولة. وكنت قد وصلت إلى مقربة من المارشال , فرحّب بي وابلغني اعتذار دوق " ستر لسو" فقد شعر فجأة في هذا الصباح بتوعّك في صحته , على أنه يرجو أن يسمح الملك فيمنحه

شرف استقباله في الكنيسة , فقبلت الاعتذار , وأبديت أسفي على انحراف مزاج الدوق.

ثم توالى الكبراء والعظماء يرحّبون بي ويعربون لي عن ولائهم وإخلاصهم وما داخل قلب أحد منهم شكٌّ ولا ريبة , فامتلأت نفسي ثقة واطمئناناً.

وتألف الموكب فركبت جواداً وتقدّمت به الصفوف والى يميني المارشال والى يساري "سبت" فقد كان هذا الشرف من حقه لأنه الأمين الأول للملك , وتبعنا الضباط على الجياد , والمدنّيون في المركبات , وسار الموكب يخترق ميادين العاصمة وشوارعها وأزقتّها .

وبدت لي العاصمة من حيث مبانيها مقسومة إلى قسمين : قسم حديث بشوارعه العريضة , وفنادقة الفخمة , وقصوره الجميلة , وقسم عتيق بأزقّته الضّيقة , ومنازله القديمة . وفهمت من "سبت" أن القسم الحديث موالٍ للملك في حين أن القسم العتيق موالٍ للدوق.

فلا عجب إذن أن أرى الشوارع الفخمة مزدحمة بالمرحّبين والمستقبلين, وأن أشاهد الشبابيك وأطناف المنازل غاصّة بالرجال والنساء يهتفون بحياة الملك , ويمطروونني بالورد والرّيحان , فسرّني ذلك كلَّ السرور حتى لقد حسبتُني الملك الحقيقي لهؤلاء الناس .

واتفق أن مررت تحت شُرفْة من الشُّرفات , فانهال عليّ منها الزهر والورد , فرفعت إليها رأسي فإذا هي مزدحمة بالنساء الجميلات المتأنقات

ينثرن الورود تارة, ويصفّقن تارة أخرى , ولشدّ ما دهشت واضطربت عندما رأيت وسطهنّ رفيقتي في السَّفَر "مدام دي موبان" تطيل النظر إليّ , فاستعنت بكل ما عندي من رباطة جأش , وحدّقت إليها طويلاً بعد ما وضعت يدي على مسدّسي , فقد خُيّل إليّ أنها قد تصرخ فجأة وتقول :" ليس هذا الرجل بالملك وإنما هو دجّال أثيم!....."

وابتعد الموكب عن الشرفة , ولمحت المارشال قد التفت إلى الوراء وأشار إلى الضباط إشارة خفيفة , فتزاحموا حولي ليمنعوا الجمهور من الوصول إليّ . وكنا قد بدأنا نجتاز الأزقّة التي يخلص سكانها للدوق , ففهمت معنى إشارة المارشال فقد خشي على الملك أن تُلِمّ به بعض الأخطار, ولكنني تجاهلت الأمر وسألته:

ــ(ما معنى هذا التغير في نظام الموكب يا مارشال ؟) فقال:

ــ(إنه من باب الحرص والحذر ليس إلا يا مولاي!)

فرجعت إلى نفسي وقلت: أمّا وأنا اليوم الملك فلأكُنْه كما أحب وأشتهي . فوقفت جوادي وقلت :

ــ(مَنْ كان أمامي من الحرس , فليبتعد حتى يكون على بعد خمسين متراً مني . أما أنت يا مارشال , وأنت يا كولونل "سبت" وأنتم أيها السادة المحيطون بي , فقفوا جيادكم حتى أبتعد أنا عنكم نحو خمسين

متراً أيضاً , واحرصوا على أن لا تتعدَّوْا هذه المسافة التي أطلبها , فإني أريد أن يرى الشعب أن مليكه موفور الثقة به .)

فأذعن الجمع لما طلبت على كُرْهٍ من المارشال والكولونل " سبت" , ورأيت المنازل والشّرفات خاليةً من كل زينة اللهم إلا من صورة الدوق الأسود , وكان الشعب قد اختار هذه الوسيلة ليُعْرب عن تعلّقه بالدوق واستخفافه بالملك , فحمدت الله على أن الملك الحقيقي قد جنّبته الأقدار رؤية هذا الاستفزاز .

وكأنما شجاعتي ورباطة جأشي , وهذا التحدّي الظاهر من جانبي , فضلاً عما كنت عليه من نضارة الشباب , وأناقة البزّة العسكرية قد فعل كل ذلك فعله الجمهور , وأثار فيه التناقض والاضطراب , وحمل بعضهم إلى أن يهتف لي ويسمعني كلمات الولاء والثناء .

وصل الموكب في آخر الأمر إلى الكنيسة , فلاحت لي أبوابها الضخمة وتماثيلها الجميلة , وشعرت في تلك الدقيقة بالجنون الذي ارتكبته , فقد بدأ رأسي يدور من الهول , وغشيت عيني سحابة لم أستطع معها أن أرى إلا صورا وأشباحا تحفّ حوليّ.

ترجّلت ودخلت الكنيسة , ومشيت إلى قرب الهيكل وأنا شبه حالم أو نائم , لا أرى سوى أشباح , ولا أسمع سوى ألحان الأُرْغُن المتعالية إلى كبِد السماء , وكدت كذلك لا أرى الكردينال حينما نزل من عرشه الأسقفي وخفّ إلى استقبالي.

على أنه كان هناك شخصان واقفان جَنْباً إلى جَنْب وَضَحا لعيني تمامَ الوضوح : كان أولهما فتاة في ريعان الصَّبا , على جانب كبير من الجمال وإن خالطت وجهَها مَسْحَة من الاصفرار , يزين رأسها ذلك الشعر الأصهب الجميل المأثور عن آل " إلفبرج" , وكان الثاني رجلاً أسمر اللون , أسود العينين والشعر , فوثقت أنه الدوق الأسود. فلما رآني امتُقع لونه وانقلب رغم سمرته إلى لون الشمع الأصفر , فما كان ينتظر أن يرى الملك في قلب العاصمة .

وتوالت علىّ المراسيم الدّينية وأنا ذاهل , فقد لبست التّاج وحلفت اليمين وكأني في عالم آخر غير هذا العالم , ولم أصْحُ من ذهولي إلا على صوت الأُرْغُن تُعْزَف عليه التّراتيل والأهازيج , ثم على أصوات المنادين يهتفون ويعلنون تتويج " رودلف " الخامس ملكاً على " روريتانيا" .

وتقدمت عندئذ الأميرة ذات الشعر الذهبي , يحمل ذيل ثوبها اثنان من الوصفاء فوقفتْ إلى جانبي وصاح أحد المنادين وقال :

ـــ(صاحبة السمو الملكي الأميرة " فلافيا")

فحيتّني الأميرة تحيّة ملؤها الجلال والخشوع , وأخذت بيدي ورفعتها إلى شفتيها , فِحْرت ماذا أصنع , فما وسِعَني إلا أن أطبع على خدّيها قبلة حارّة , فاحمّر وجهها ولست أدرى لماذا .

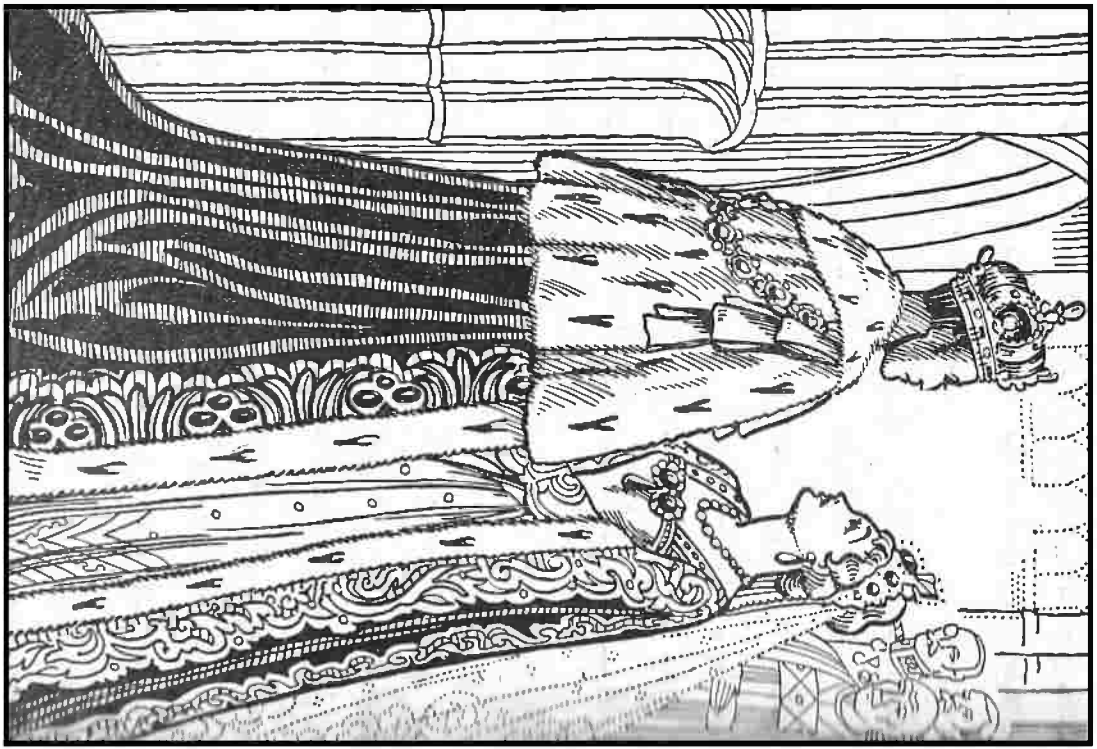

وجاءت نوبة الدوق الأسود , فاقتّرب منى وهو ينظر ذات اليمين وذات الشمال , كمن يفتّش عن منفذ يهرب منه . فلما تصافحنا وتبادلنا القبلات شعرت بيده ترتجف , وبشفتيه ترتعشان .

وتوالى بعد ذلك السُّفراء والكبراء مهنئّين , فقبلت التَّهنئات , وقمت بمهمتّي كأحسن ما يقوم بها أيُّ ملك من الملوك.

وانتهى الاحتفال , وسار الموكب إلى القصر , وركبت أنا والأميرة " فلافيا" مركبة مكشوفة , واجتزنا الأحياء القديمة في المدينة دون أن يكدّر صفو الموكب حادث من الحوادث .

وكان الشعب يهتف لنا وكأنه نسى الدوق الأسود حتى ذهب الأمر ببعض الفتيات إلى أن يسألْنَنا :

ـــ(متى يوم الزفاف ؟)

فهزّتني هذه الجملة هزًّا عنيفا , فلم يكن "سبت" قد أطلعني على العلاقة العاطفية بين الملك والأميرة , فكنت في حيرة من أمري لا أدرى أية خطّة أسلكها معها , وازداد بَلبْالى عندما سمعت الأميرة تقول لي :

ـــ(يلوح لي يا "رودلف" أنك تغيرت , فأنت اليوم غيرك بالأمس فإني أراك هادئاً رزيناً مهموما , أبدأت تجدُّ في الحياة ؟)

كفتني هذه الكلمات لأعرف رأى الأميرة في الملك فقلت مغمغما :

ـــ(أوَيريضيك هذا منى ؟) فقالت :

ـ(أنت تعرف آرائي و أفكاري .) فقلت:

ـ(سأجتهد أن أكون عند حسن رأيك , وأقسم لك يا ابنة العم أن حفل هذا اليوم قد أثَّر فيَّ تأثيراً كبيراً .)

فتبسمت وأشرق وجهها حبوراً ثم عبست وقالت :

ـ(ألاحظت سَحْنَة "ميكل" ؟) فقلت :

ـ(رأيته حزيناً كئيباً .) فقالت :

ـ(أرجوك يا عزيزي "رودلف " أن تكون يقظاً حذراً , فلست تجهل أن أخاك .....) فقلت مقاطعا :

ـ(يطمع في ما هو لي , وفى شئٍ لم أظفَرْ بعدُ به , وأرجو أن أكون أهلاً للحصول عليه !)

شعرت أنى بحديثي هذا قد قطعت بعض العهود على الملك , ولكنني انزلقت إلى ذلك مُكْرَهاً بعد ذلك الصّوت العَذْب الذي ملك عليّ كلّ مشاعري , فاستسلمت قليلاً إلى التفكير ثم انتبهت على صوت الأبواق ودويّ البنادق إيذاناً بوصولنا إلى القصر .

نزلتُ من المركبة وساعدت الأميرة على النزول , فتأبّطت ذراعي وصعدنا السلّم الرخامي وقد اصطفّ على درجاته جمهرةُ الخدم بثيابهم المزركشة , وهكذا رأيتُني في قصر أجدادي تحيط به الأبَّهة والفخامة .

وتناثر القوم حول الموائد , فجلستُ إلى المائدة الملكية , وجلستْ

الأميرة عن يميني والى جانبها الدوق الأسود مفكراً كئيباً , وجلس إلى شمالي نياقة الكردينال . وكان " سبت " واقفاً وراء مقعدي كالصم لا يتحرك . أما "فرتز" فقد جلس إلى إحدى الموائد مضطرباً ممتقع اللون .

فما وسعِني في تلك اللحظة إلا أن أفكر في ملك " روريتانيا " وأقول في نفسي ترى ما شأنه وكيف حاله ؟.....

٦

بعد حوادث هذا اليوم العظيم وقد أجدت فيه التمثيل , أويت إلى مخدعي وصحبني إليه "سبت" و "فرتز" , فما كدت أدخله حتى استلقيت إلى أحد المقاعد متعبا كل التعب . ثم تبادلنا الأحاديث , وكنا نحن الثلاثة على غاية من السرور لما أصبناه من نجاح .

غير أن "فرتز" لاحظ علىّ أنى كنت كثير الاهتمام بالأميرة مما زاد في كآبة الدوق الأسود وسُخطه فحذّرني أن لا أندفع وراء عاطفتي .

فقاطعه "سبت" وهو يقول :

ــ (ما لنا وللأميرة الآن ؟ هل أنت مستعدٌ يا سيد "راسنديل" للرحيل ؟)

فقلت في شئ من الدّعابة والمزاح :

ــ(نعم كلّ الاستعداد . فالساعة الآن الخامسة , وعند منتصف الليل سأعود كما كنت "رودلف راسنديل" فتبسم "سبت" وقال :

ــ(سيكون هذا من حسن حظّك , فَلأَنْ تعود "رودلف راسنديل" خيرٌ من أن تصبح المرحوم "رودلف راسنديل" وكيفما كان الأمر فالقلق يساورني فقد رأيت الدوق الأسود يتسلم برقية من "زندا" ويدخل إحدى الغرف ليقرأها , فلما خرج كان أصفر الوجه , جاحظ العينين , كمن رأى شبحاً من الأشباح.)

زادتنى مخاوف "سبت" رغبةً في المسارعة إلى الخروج من العاصمة فقلت له :

ــ(لبَّيْك , متى تريد أن نرحل ؟) فقال:

ــ(تعلم أن الدوق هو حاكم المدينة فلا بدّ لنا من ترخيص بالمرور نستطيع به مغادرة المدينة , فهناك القلم فوقَّعْ على هذا الترخيص , وإليك نموذجاً من توقيع الملك .) فصحت فيه مشمئزاً :

ــ(ما تعوّدت التزوير يا سّيدي ...) فقال :

ــ(الغاية تسوّغ الواسطة ... وليس هذا بتزوير فإنما نخدم الملك. وعلى كل حال دعنى أرتكب أنا هذا التزوير فضميري لا يوبّخني عليه.)

وبأقلَّ من تردد الطرف وقَّع على الترخيص باسم " رودلف"

محاكياً توقيع الملك بحيث لا يمَّيز المحاكاة غير الخبراء , ثم خاطب "فرتز" وقال :

ــ(والآن يا "فرتز" عليك بحراسة مخدع الملك , فأذعْ أن الملك قد أنهكه التعب فنام , ولن يرى أحداً قبل الساعة التاسعة من صباح غد , أفهمت ؟) فقال "فرتز" :

ــ(أجلْ فهمت . ولكن هب الدوق الأسود حضر وألحّ في الدخول...) فقال "سبت" :

ــ(عليك أن تقول له إن الأمراء الذين يجرى في عروقهم الدم الملكي الحرّ هم وحدهم من يستطيع الدخول على الملك في أثناء رقاده .) فقال "فرتز" وهو يضحك :

ــ(أحْبِبْ به من جواب سيكسبني محبة الدوق ورضاه !) فقال "سبت" :

ــ(إذا فتح باب مخدع الملك فلا أوَدّ أن أعود فأراك حيّاً!) فقال "فرتز" شامخ الأنف :

ــ(اتّكل عليّ يا حضرة الكولونل !)

وجاءني "سبت" بملابس جندي تابع له فلبستها ثم ودّعنْا "فرتز" وخرَجنا لا من باب المخدع , بل من باب سرّى في أحد الجدران كان "سبت" يستخدمه كثيراً أيام الملك الراحل . وأفضى بنا ذلك الباب إلى رواق طويل , فاجتزناه حتى وصلنا إلى بابٍ ضخم فتحه "سبت" , وخرجنا

منه إلى أحد الشوارع الملاصقة لنهاية حديقة القصر . و رأينا هناك رجلاً ينتظرنا بجوادين , فقفزنا اليهما وسرنا نخترّق الشوارع وكانت لا تزال تَعّج بالناس فما أثرت فيهم أية ريبة ولا سيما أنى كنت قد أنزلت قبعتي حتى أذني , وداريت وجهي بمعطفي . فسرت وزميلي هادئين مطمئنين حتى بلغنا سور المدينة , ووقفنا إزاء باب مقفل . فقال لي "سبت" :

ــ (أعِدّ سلاحك , فلو حاول الحارس أن يتكلم فيجب القضاء عليه.)

فوضعت يدي على مسدّسي استعداداً للطوارئ غير أن إذعان الحارس لمضمون الترخيص الذي أبرزناه له لم يحوجْنا إلى استعمال العنف , فمرقنا من الباب مروق السهم وأطلقنا لجوادينا العِنان .

وكان الليل يهبط شيئاً فشيئاً حتى لفَّ الكون بردائه , ثم طلع القمر يتهادى في القُبّة الزرقاء , فوقفنا هنيهة في بعض البقاع لنستريح ونريح جوادينا , وكانت الساعة قد جاوزت التاسعة . وبعد أن قضينا زهاء نصف ساعة قلت :

ــ (بودّي لو أعرف ماذا نقلت تلك البرقية إلى الدوق الأسود من أخبار ؟) فقال :

ــ(وأنا أيضا.....)

ولم يتابع " سبت" كلامه بل وقف يُرْهِف أذنيه ثم قال لي :

ــ (أسامعٌ أنت شيئاً ؟)

فأرهفت أنا كذلك أذني فسمعنا أصوات سنابك خيل تجدُّ في أثرنا , وبإشارة من "سبت" وثب كلٌّ منا إلى صَهْوة جواده وانطلقنا نسابق الرياح .

ووقفنا بعد برهة نتنصّت من جديد فلم نسمع شيئاً , فتابعنا السير ثم عاد الصدى يطرق مسمعينا , فوقفنا وترجّل "سبت" , ووضع أذنه على الأرض ثم نهض وقال :

ــ(إنهما اثنان على بعد ميل تقريباً , ومن حسن الحظ أن الطريق ليس في خطّ مستقيم....)

وعدنا ننتهب الأرض انتهاباً حتى وصلنا إلى غابة "زندا" عند مفترق طريقين فقال "سبت" :

ــ (إن طريقنا هو الطريق الأيمن , أما الثاني فيوصل إلى القصر .... فترجَّلْ) فقلت مدهوشاً :

ــ (أنترجَّلْ لكي يدركنا المطاردون ؟) فقال في غلظة وجفاء :

ــ (ترجّلْ.....)

فأذعنت لأمره , وقُدنْا جوادينا إلى داخل الغابة , وعصبنا أعينهما ومكثنا ننتظر فقلت :

ــ (تريد أن تعرف من يطاردنا ؟) فقال :

ــ (هو ذاك , كما أريد أن أعرف إلى أين هما ذاهبان .)

وكان السكون مخيماً على تلك البقعة , والقمر يرسل أشعّته الفضّية

فينير الطريق , ولم يطل انتظارنا حتى همس "سبت" قائلاً :

ــ (انظر اليهما لقد اقتربا ....)

فنظرت إلى الطريق وقلت :

ــ (إنه الدوق !) فقال :

ــ (أجل .. إنه الدوق .)

ولم يخطئنا النظر فقد كان القادم هو الدوق يتبعه رجل ضخم عرفته كل المعرفة , فإنه "ماكس هولف " أخو " حنا" حارس غابة الدوق ووصيفه , ورأيت "سبت" قد شهر مسدّسه ,ووضع إصبعه على الزّناد.ولست أشكّ في أنه قد يرضى بالنزول عن عشر سنوات من عمره في سبيل اصطياد الدوق في تلك اللحظة , وإنقاذ الدولة من شروره. فأمسكت بذراعه فأشار إليّ إشارة يدلّ معناها على أنه لن يقدم على مثل هذا العمل.

وأعمل الرجلان مهْمازيهما في شاكِلتَي الجوادين , وانطلقا في طريق القصر حتى غابا عن الأنظار . وانقلبنا نحن إلى جوادينا فسارا بنا خَبَباً في طريق جناح الصيد , وما زلنا نغُدّ في السير حتى بلغنا سور الحديقة فإذا كلُّ شئ هادئ, لا صوت ولا حركة . فترجّلنا وسرعان ما لفت "سبت" نظري إلى شئ مطروح على الأرض, فحقّقت فيه فوجدت نحواً من خمس مناديل ممزقة ,فنظرت إليه متسائلاً فقال :

ــ (إنها المناديل التي قيّدت بها الخادمة العجوز .....)

ربطنا أرسان الجوادين إلى بعض الشجر , وتقدّمنا فاجتزنا الباب وكان مفتوحاً, وانتهينا إلى الغرفة التي أكلنا فيها وشربنا ليلة أمس, فرأينا الزّجاجات الفارغة لا تزال متناثرة في أنحاء الغرفة , ورأينا المائدة لا تزال كذلك على ما تركناها عليه فتوجّهنا إلى القبو وكان بابه مفتوحاً على مصراعيه , فجرينا إلى الغرفة التي حبس فيها "سبت" الخادمة العجوز فكانت خالية خاوية , فغاد رناها إلى الغرفة التي أنزل فيها الملك فكان بابها موصداً فقلت :

ــ (هذه علامة حسنة....)

وهمّ "سبت" بأن يجيبني ولكنّني سمعته يقذف من فيه الشتائم و اللعنات , ورأيت وجهه قد اصفرّ وامتُقع , ويده تشير إلى أرض الغرفة.

فنظرت حيث أشار , فرأيت خيطاً من الدم المتجّمد يخرج من تحت الباب , فاندفعت إلى الباب أريد أن أفتحه فوجدته مقفلاً فصاح "سبت":

ــ (أين إذن يوسف الخادم ؟ فصحت أنا :

ــ (بل قل أين الملك؟)

وطفقت أعالج الباب حتى فتحته , فدخلت مسرعاً إلى الغرفة في حين بقي "سبت" سانداً ظهره إلى الجدار ,وهو يضطرب كل الاضطراب ,ويخشى أن يدخل الغرفة خوفاً من أن يرى مولاه جثة هامدة . ثم رأيته قد أهاب بشجاعته ولحق بي , فرأينا في إحدى الزوايا جثة رجل

مستلقٍ إلى ظهره, مكتوف الذراعين , مصاب بجرح بليغ في رقبته.

فحققنا فيه فإذا هو الخادم يوسف ,فأدركنا أنه لقي حتفه وهو يدافع عن الملك.

وفى تلك اللحظة سمعت "سبت" يقول بصوت مختنق :

ــ (والملك ؟! آه يا الهي ! ماذا جرى للملك ؟) فقلت :

ــ (لقد نقلوه من هنا فعسى أن لا يكون قد أصيب بمكروه !)

٧

تخاذلتْ قوى "سبت" فطوّقته بذراعي وخرجت به من القبو إلى غرفة المائدة , وجلسنا لا نَـنْبِس ببنت شفة حتى سمعنا الساعة تدقّ الواحدة , فاستعاد "سبت" رشده وقواه فقلت له :

ــ (فهمنا الآن معنى ما أراد التابع أن يقوله للدوق. أتذكر أنه قال له : "إذا كانت الأمور قد جرت كما تشتهى" يا للداهية! ولقد عرفنا الآن فحوى البرقية التي تسلمها... لا شك أنه شيطان رجيم !)

لم يجب "سبت" بشئ ,بل أخرج غليونه من جيبه, وحشاه بالتبّغ وأخذ يدخّن وهو مستسلم إلى التفكير . فقطعت عليه تفكيره وقلت :

ــ (يجب أن نعود إلى العاصمة ,ونأتي منه بفرقة من الرجال الأمناء

الأوفياء, ونعلنها حرباً شعواء على الدوق.)

واستمرّ "سبت" يفكر ثم اهتز فجأة وقال:

ــ (تباً لتلك العجوز من امرأة زنيمة.... لقد استطاعت حينما جاؤوا يخطَفون الملك أن تنبّههم إلى حيث كانت , فكشفوا عن مقرّها ومقرّ الملك ويعلم الله أين هو الآن ؟)فقلت:

ــ (لا نضيع الوقت عبثاً .)

ورأيته ابتسم ابتسامة صفراء وقال :

ــ (سنُرى الدوق أننا له بالمرصاد... هيّا بنا نعود إلى العاصمة , فعلى الملك أن يظهر لشعبه ويستقبل زائريه...) فقلت :

ــ (أيّ ملك تعنى؟) فقال:

ــ (الملك الذي تُـوِّج في هذا الصباح .) فقلت:

ــ (أمجنون أنت؟!) فقال :

ــ (أتريد إذن أن نعود إلى العاصمة , ونذيع في الناس سرّ هذه الملهاة أو المأساة التي مـثّـلناها لكي يضع الدوق حبال المشنقة في رقابنا ؟ أتظن النبلاء والشعب يغتفرون لنا استهزاءنا بهم ؟ أتحسبهم يُخلصون لملكٍ سَـكِـر حتى فَقَد الوعي عشّية تتويجه ثم أرسل إليهم خادماً يحلّ محله؟) فقلت:

ــ (لقد سقَوْه شراباً مخدّراً... ثم إني لست خادماً !) فقال:

ــ (أقول لك الرّواية التي سيذيعها الدوق ....)

ونهض "سبت" ووضع يده على كَتفِي وقال :

ــ (يا عزيزي ! إذا كان لك من الشجاعة ما تستطيع معه أن تظلّ حيث وضعت نفسك , فقد يمكنك أن تنقذ الملك .... هيا ..... تعال واحفظ له عرشه....) فقلت:

ــ (والدوق ؟ والأنذال الذين عاونوه على خطف الملك ؟) فقال:

ــ (إنهم مكرَهُون أن يلتزموا الصمت وإلا كشفوا عن جرائمهم....) فقلت:

ــ (هَـبْهـُم قتلوا الملك...) فقال :

ــ (إذن تتبوّأ عرشه فأنت لا تقلّ إعراقاً عن الدوق الأسود في سُلالة "إلفبرج" ولكن لا أظنّهم قتلوا الملك , فسوف يُـبُقون عليه ما دمت أنت جالساً على العرش....) فقلت:

ــ (ولكن سينكشف أمري عاجلاً أو آجلاً .) فقال:

ــ (من يدرى؟ وكيفما كان الأمر فالوقت ثمين . هيا إلى العاصمة .)

فتبعته دون تفكير ,غير حافل بالأخطار . وكان هو قد اندفع إلى خارج الدار ليطمئن إلى أن الجوادين لا يزالا حيث تركناهما , فلما رأيناهما رغبت إليه في أن أدفن الخادم يوسف المسكين , فأبى وتمّنع , وألححت أصررت فقال لي :

ــ (الوقت أضيق من أن تقضيه في دفن الموتى .... وعلى كل حال فهناك من يقوم مقامك .... انظر...انظر...)

فأجلت طرفي حيث مدّ ذراعه , فرأيت في ضوء القمر الباهت الذي أخذ ينحدر إلى المغيب , جماعة من الناس يبلغون الثمانية , كان أربعة منهم يركبون الجياد , وأربعة يسيرون على الأقدام ويحملون المعاول والمجارف , فما شككت في أنهم من رجال الدوق أقبلوا يمحون أثار الجريمة التي ارتكبوها, وكان القوم قد صاروا على مقربة منا فقلت لزميلي :

ــ (ماذا لو انتقمنا ليوسف المسكين , وقتلنا واحداً أو اثنين من هذه الجماعة ؟) فأجابني إلى رغبتي كارهاً وقال :

ــ (حسن ... اشْـهَـرْ مسدّسك .....) فقلت:

ــ (أوثر أن استخدم السيف.....)

وقفز كلٌّ منا إلى جواده, وانتظرنا دقيقة أو دقيقتين فسمعنا احد الرجال يقول للمشاة:

ــ (اذهبوا واثتوا به.)

فرأيناهم يدخلون جناح الصيد فهمس "سبت" في أذني قائلاً:

ــ (هيا فالفرصة ملائمة.....)

وانقضضنا نحن الاثنين على الفرسان الأربعة , فأطحت رأس واحد منهم بضربة سيف , فبرز لي عملاق عن يميني وآخر عن شمالي, فاغمدت سيفي في صدر أوّلهما, وأردت أن أسحبه فامتنع على فتركته مغمداً في صدره, ونفرت بجوادي لأكون بعيداّ عن متناول الفارس الذي

كان إلى شمالي , فأدركت "سبت" وكان قد جندل خَصْمه برصاصة واحدة, وكرّ راجعاً إلى . فلما رآني طائراً نحوه, استدار بجواده وأشار إليّ أن ألحق به ففعلت, وانهالت وراءنا طلقات النار فكنّا أبعد من أن تصيبنا .

وشعرت عندئذ بألم شديد في سَبّابة يدي اليمنى ورأيت الدم يتدفّق منها فقد كنت أصبت فيها بجرح بالغ, فتحاملت على نفسي حتى قطعنا شوطاً بعيداً من الطريق , فوقفنا وترجلنا لنأخذ قسطاً من الراحة فضمد "سبت" جرح أصبعي وسألني:

ــ (ترى هل عرفك القوم ؟) فقلت:

ــ (عندما أغمدت سيفي في صدر العملاق سمعته يقول : الملك !) فقال:

ــ (سيتداول القوم الخبر ويبلغ الدوق فتملكه الحَيْرَة...)

وعُدنْا إلى جوادينا فركبناهما , وما زلنا نطوى المسافات طيًّا حتى طلعت الشمس , فوصلنا إلى العاصمة في نحو الساعة الثامنة , ووجدنا باب المدينة مفتوحاً كما هي العادة يدخل الناس منه ويخرجون , فما كان يقفل إلا عندما تأخذ الدوق لَوْثَة من الجنون , أو شرٌّ مُبيَّت فيصدر أمره بإغلاقه.

واخترقنا الشوارع حتى بلغنا الباب الخلفي للقصر , فوجدنا الرجل

الذي كان قد أحضر لنا الجوادين لا يزال ينتظرنا , ففتح لنا الباب واجتزنا الرّواق وكنا بعد دقائق في مخدعي أو في مخدع الملك.

واستدعيت "فرتز" فأقبل مهرولاً فلم يكد يراني حتى خرّ ساجداً أمامي وهو يقول:

ــ (شكراً لله وحمداً ! شكراً لله على سلامتكم يا صاحب الجلالة !).

٨

أنهى إليّ "سبت" بما يجب على أن أفعله وأنا أتناول معه طعام الإفطار , وأطلعني على ما يحب الملك وما لا يحب من طعام وشراب , ثم جاءني وزير الدولة وقضيت معه ثلاث ساعات وأنا أصرّف شؤون الدولة, وكان جرح إصبعي عوناً لي على الامتناع عن التوقيع فاكتفى الوزير بأن أرسُم صليباً في مكان التوقيع, ويوقّع هو تحته مستندًا في ذلك إلى حادثة من هذا القبيل كانت قد جرت لبعض ملوك "روريتانيا"

واستقبلت في المساء بعض السّفراء والكبراء , فقمت بمهمّتي على خير وجه كما لو كنت تمرّست بالمُلك والسلطان زمنا طويلا.

ولم أتنّفس الصُّعَداء إلا عندما خلوت في آخر النهار إلى "سبت"

و "فرتز" وأنهيت إليهما أنى في حاجة شديدة إلى الراحة فقال "فرتز" مضطرباً :

ــ (علينا أولاً أ ن نتخلَص من الدوق الأسود ... فثلاثة من الستة موجدون في العاصمة .) فقال "سبت" :

ــ (أصحيح ما تقول ؟ ثلاثة فقط ؟) فقال "فرتز" :

ــ (كل الصحة !) فقال "سبت" :

ــ (هذا دليل على أن الملك حيٌّ يُرْزَق , فالثلاثة الآخرون يحرسون الملك .) فقلت وقد ضقت ذرعاً :

ــ (بحقّ السماء إلاّ قلتما لي من هم هؤلاء الستة الذين تتحدثون عنهم؟) فقال "سبت":

ــ (إنهم ستة رجال في خدمة الدوق الأسود , وهم أطوع له من بنانه: ثلاثة منهم من هذه البلاد هم "روبرت هنترو" زعيمهم و"لونجرام" و "كرافستاين" والرابع فرنسي يدعى "دي جوتل" والخامس بلجيكي يدعى "بروسونان" أما السادس فإنجليزي يدعى " رتشارد" وهو مستعد أن يَقْتُل أو يُقْتَل في سبيل الدوق الأسود....

فمن منهم هنا يا "فرنز" ؟) فقال "فرتز" :

ــ (الأجانب.) فقال "سبت" :

ــ (حسن ... إن غداً لناظره قريب.)

وكان "سبت" لا يقل عنّى تعباً وإعياء , فقرّ قرارنا على الإخلاد إلى النوم والراحة , واستيقظت في صباح اليوم التالي نشيطاً مجدّد القوى, وكنت آليت على نفسي ما دام الملك في أمان , أن لا أصارح الدوق بالعدوان بل أحاول أن أكسب إلى صفّى رجاله وطبقة الشعب الموالية له. فخطر لي بعد ظهر ذلك اليوم أن أركب جوادي و أجول في المدينة , فاصطحبت معي "فرتز" وكنت أردّ على التحية بأحسن منها . ووقفت في بعض الأزقّة لأشترى باقة من الورد من إحدى البائعات فنفحتها بقطعة من الذهب .

وحدث ما توقّعت , فتألب من حولي الناس وهم يهتفون لي ويصفّقون, وسِرْت في ذلك الجمع الحاشد إلى قصر الأميرة "فلافيا" فزاد هُتافهم وتصفيقهم لأنهم كانوا يُنْزلون الأميرة من قلوبهم منزلة رَفيعة. وكنت قد علمت من وزير الدولة أن لا سبيل إلى كسب ثقة الشعب ومحبته إلا عن طريق الأميرة.

كانت المهمّة شاقة فليس من السهل أن ألعب بالنار دون أن أحترق, فاستقبلتني الأميرة استقبالاً حسناً , ونظرتْ إلى ذلك الجمع الغفير الذي كان يتبعني إلى قصرها فقالت لي :

ــ (أراك تكسب أكاليل الفوز والغار .... إن تاج المُلْك الذي لبستَه قد بدَّل من شأنك وغيَّر ....)

وترامت إلينا وهى تتكلم , ضجة في الشارع , فخّفت الأميرة إلى النافذة وعادت تقول:

ــ (إنه هو ... إنه الدوق...فهل اسمح له بالدخول ؟) فقلت :

ــ (لا شك في ذلك إذا كنت ترغبين.....) فقالت:

ــ (إنك لغريب الأطوار يل " رودلف " فأنت تعلم أنه لا يُسْمَح لأحد بزيارتي عندما تكون إلى جانبي.) فقلت:

ــ (إنها عادة حميدة وكنت قد نسيتها , ولكن لا بأس في التجاوز عنها وأرى أننا قد أطلنا على أخي الانتظار ....)

فنهضت واندفعت إلى الباب ففتحُته , ومشيتُ إلى وسط الغرفة التي كان فيها الدوق فرأيته عابس الوجه جالساً إلى مائدة والناس وراءه وقوف , فوثب وافقاً فصافحته وأدخلته معي إلى مخدع الأميرة وأنا أقول له:

ــ (لو كنتُ عرفتُ يا أخي العزيز أنك هنا لما تركتك تنتظر دقيقة واحدة , ولطلبت من الأميرة السماح لك بزيارتها في الحال .)

فشكرني في جفاء وبرود ,وإن كان يحاول أن يوهمني أن خديعتي قد انطلت عليه , وأنه يعتقد أنى أنا الملك الحقيقي . فجلسنا نتحدّث فأطنبت في الثناء على النظام الرائع الذي وضعه ليوم التتويج , كما أسهبت في شكره على حسن ضيافته إياي في جناح الصيد. وكأنما ضاق صدره بمثل

هذا الكلام , فنهض هذا الكلام , فنهض مستأذناً في الانصراف , فلما وصل إلى الباب التفت إليّ وقال :

ــ (في البهو ثلاثة من أصدقائي يرغبون في أن يتشرَّفوا بتقديمهم إلى جلا لتكم.“

فسارعت إليه , وتأبّطت ذراعه , وخرجت معه إلى بهو الانتظار على ذلك الوضع من الود والمحبة بين شقيقين متحابين , فأشار إلى بعض الناس فتقدم ثلاثة رجال إلينا فقال :

ــ (أقدّم إلى جلاتكم ثلاثة من أصدقائي هم أكثر الناس ولاءً وإخلاصا لجلا لتكم .) فقلت:

ــ (يسرّني أن أعرفهم وأعرف فيهم هذه الصفة التي تقدّمهم بها إليّ .)

فاقترب منى الواحد بعد الآخر وقـبّلوا يدي في انحناءة طويلة . وكانوا الأجانب الثلاثة في عصابة الدوق الستة . وبعد أن فرغت منهم ومن أخي الدوق رجعت إلى الأميرة وكانت تنتظرني عند الباب , فصافحتها مودّعاً فقالت بصوت منخفض :

ــ (أرجوك يا عزيزي ”رودلف“ أن تكون حذِراً فطِناً .... أنت تعرف ما أعنى .... تذكر أن حياتك غالية وأنك مدين بها إلى ...)فقلت:

ــ (مدين بها إلى ؟.....) فقالت:

ـ (بلادك...) فقلت:

ـ (إلى بلادي فقط ؟...) فقالت وقد اصطبغ وجهها بحمرة الورد:

ـ (إلى أصدقائك أيضاً ؟ ....) فقلت:

ـ (إلى اصدقائى ؟ ....) فقالت بصوت يشبه الهمس :

ـ (والى ابنة عمك ... خادمتك المطيعة .)

وكاد هذا الشعور السَّمْح من جانب الأميرة يخنقني ويكتم أنفاسي، فودّعتها وانصرفت ولقيت " فرتز " يغازل خطيبته الكونتس "هلجا" وصيفة الأميرة فودّعها ولحق بي...

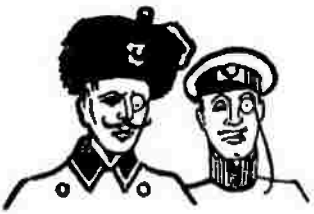

٩

قضيت أياماً نُبْت فيها مناب الملك الحقيقى ، واطّلعتُ على أسرار الدول وأسرار الناس ، ولم تخْلُ هذه الأيام من أخطاء ارتكبهتا ولكن كنت أتداركها بكثير من اللباقة والشجاعة ورباطة الجأش . ولعل شبهى الغريب بالملك هو الذى سهّل مهمّتى فلم ترْقَ الى الشكوك والرّيب .

دخل «سبت» يوماً علىّ وفى يده رسالة فقال :

ــ (هذه رسالة موجهة اليك .... إنها من سيدة ..... ولكن عندى ما أقوله لك قبل أن تفضّها .) فقلت :

ــ (ماذا ؟) فقال :

ـ (الملك فى قصر « زندا « فقلت :

ـ (وكيف عرفت ذلك ؟) فقال :

ـ (إن وجود ثلاثة رجال من عصابة الدوق الستة هناك كان دليلي على أن أعلم ما علمت , فضلاً عن أن الجسر المؤدى الى القصر مرفوع دائماً, وما من أحد يدخل القصر إلا بإذن من الدوق نفسه أو من « روبرت» زعيم الستة .....) فقلت :

ـ (وما خطّتك ؟) فقال «سبت»

ـ (يقترح « فرتز» أن نهاجم القصر بعدد كبير من الفرسان و المشاة ورجال المدفعية ..... ولكن ذلك لن يجدى نفعاً !) فقلت :

ـ (سأذهب الى «زندا») فقال :

ـ (هل جنُنت ؟) فقلت:

ـ (كلا , غير أنى أود أن أنتهى من تمثيل الرواية التى أمثّلها , فحيثما ذهبت أرى نفسى محاطاً بنفر من الجواسيس !) فقال:

ـ (أعرف ذلك وأنا الذى أطلقهم وراءك حرصاً على حياتك , فموتك يفيد الدوق فائدة كبيرة .) فقلت :

ـ (أتحسبنى عاجزاً عن الدفاع عن نفسى ؟) فقال :

ـ (كلا , ولكنى أوجس شراً من هؤلاء الثلاثة الموجدين فى العاصمة, فكلٌ منهم مجرم أثيم , وكلٌ منهم يتحّين الفرص لاغتيالك ..... إليك الرسالة فمَّمن هى ؟)

فضضت الرسالة وقرأتها بصوت عال فإذا فيها ما يلى : (إذا رغب الملك فى الوقوف على أشياء يهمّه الوقوف عليها , فليسترشد بهذه الرسالة .

ففى نهاية الشارع الكبير منزل تكاد تخفية حديقته الواسعة . وبابه الكبير يعلوه تمثال حوريَّةٍ من حوريّات البحر , وفى وسط سور الحديقة باب من الحديد , فإذا دخل الملك وحده فى منتصف هذه الليلة من هذا الباب واتجه الى اليمين , وخطا نحو ثلاثين خطوة فسوف يرى داراً صغيرة يُصْعَد إليها بسلّم من ست درجات , فإذا صعد السلم ودخل الدار , فسيرى شخصاً يفضى اليه بسرّ عظيم يتعلق بذاته وبعرشه . وصاحب هذه النصيحة أحد أصدقائه الأوفياء , ولا بدّ من أن يحضر الملك وحده , فإن لم يلبِّ هذا النداء عرض نفسه لخطرٍ جسيم ..... وعليه أن لا يُطـْلع أحداً على هذه الرسالة إبقاءً على سّيدةٍ مخلصة له , فالدوق الأسود لا يغفر ولا يرحم .)

فقال «سبت» يعلـّق على هذه الرسالة :

ــ (صحيح أن الدوق الأسود لا يغفر ولا يرحم , وصحيح أيضاً أنه يستطيع أنْ يُمْلى مثل هذه الرسالة .)

وكنت أشاطر «سبت» رأيه فهممت برمى الرسالة الى سلـّة المهملات لولا أنى قرأت على ظهر الصفحة الكلمات الآتية :

(اذا تردّدت فاستشر الكولونل « سبت» واسأله من تكون السيدة

التى تقدم كل شئ لكى تحول دون زواج الدوق من ابنة عمه , اسأله عن اسمها يخبرك انه يبتدئ بحرف أ)

فوثبت من مقعدى وصحت :

ــ (أنطوانيت دى موبان !) فقال : «سبت» :

ــ (وكيف تعرف هذا ؟)

فأخبرته بكل ما أعلم عن هذه السيدة . فهزّ رأسه وقال :

ــ (علمت أنهما على غير وئام فى هذه الايام , ولكن هذا لا يمنع أن يكون هو مَـنْ أملى هذه الرسالة .) فقلت :

ــ (هذا رأيي أنا أيضاً , ولكنني سأذهب الى الموعد المضروب , فقد تستطيع هذه السيدة أن تخدمنا خدمة جليلة لو شاءت .) فقال :

ــ (لا ..... سأذهب أنا .) فقلت :

ــ (تذهب الى السور فقط .) فقال:

ــ (بل أدخل الدار .) فقلت محتدماً :

ــ (إمّا أن أذهب الى لقاء هذه السيدة , وإما أن أعود الى إنجلترا .)

فأذعن « سبت» مستسلماً , وفى الساعة الحادية عشرة والذقيقة الثلاثين كنت أنا و «سبت» راكبين جوادينا فى طريقنا الى ذلك المنزل , وبقى « فرتز» فى القصر ولم نخبره الى أين نحن ذاهبان .

وصلنا الى الباب الصغير فتركت « سبت» ينتظرنى عنده , ودخلت

والمسدس فى يدي واتجهت الى اليمين مارًّا بحديقة مهملة . وكان الظلام حالكاً , والسكون ضارباً أطنابه , فتراءى لى بعد قليل شبحٌ ضخم فكان المنزل .

صعدت درجاته الست , ودفعت الباب وكان مفتوحاً , فلم أكد أتخطّى العتبة حتى خفّت الىّ سيدة أمسكت بيدى وهمست فى أذنى : « أقفل الباب» فأطعتها وسلّطت عليها نور مصباح الجيب الذى كان معى فإذا هى السيدة الجميلة « أنطوانيت دى موبان «

ورأيتنى معها فى غرفة تكاد تكون عارية من الأثاث إلا من بعض الكراسى , ومن منضدة حديديّة كالتى توضع فى الحدائق أو على أبواب المطاعم فقالت لى :

ــ (لا تـَفُـهْ بكلمة فالوقت ضيّق .... أنا صاحبة الرسالة إليك يا سيد « راسنديل « كتبتها بعد أن أملاها علىّ الدوق .) فقلت :

ــ (ما شككت فى ذلك !) فقالت :

ــ (بعد عشرين دقيقة سيحضر الى هنا ثلاثة رجال ليغتالوك .) فقلت :

ــ (ثلاثة . الثلاثة ؟) فقالت:

ــ (نعم . ويجب أن لا تنتظرهم وإلا فموتك محقّق .) فقلت :

ــ (ما لم أنتصر عليهم .....) فقالت :

ـ (أصْغ الىّ ... خطتهم أن يقتلوك وأن يرموا بجثّتك فى بعض الشوارع المريبة فى العاصمة , ليوهموا الشعب أن الملك قتل فيها ثم يلقى الدوق القبض على اصدقاء الملك وفى طليعتهم الكولونل «سبت» والضابط « فرتز» ويعلن الأحكام العرفية ويبعث الى رجاله الثلاثة المقيمين فى قصر « زندا « أن اقتلوا الملك , ثم يستولى على العرش أو يمهّد الى ذلك بتزوّجه من الأميرة فهل فهمت ؟) فقلت :

ـ (إنها مؤامرة محبوكة الأطراف .... ولكن لماذا تتطوّعين أنت يا سيدتى ....) فقاطعتنى قائلة :

ـ (ظنَّ ما تظنّ .... فلست أطيق أن أرى الدوق يتزوّج الأميرة , فانصرف الآ ن واذكر انك دائماً فى الليل والنهار معرَّض للخطر , فاذهب الآن وعجّل .... ولا تخرج من الباب , بل اتّجه الى ناحية باب السور , فستجد هناك سلّماً , فتسلق السور واهرب .....) فقلت :

ـ (وأنت ؟) فقالت :

ـ (دعنى وشأنى ولا تضيّع الوقت , فسأقول للدوق إنك لم تحضر وأنك قد تكون عرفت الحيلة .)

فقبّلت يدها وقلت لها :

ـ (سيدتى , لقد أسديت الليلة إلى الملك يداً بيضاء , ففى أى جانب من جوانب قصر « زندا» حبسوا الملك ؟) فقالت همساً :

ـ (إن وراء الجسر باباً ضخماً ووراء هذا الباب .... صه .... إنى أسمع وقع أقدام . آه يا إلهى ! لقد اقبلوا قبل الموعد .)

واصطبغ وجهها بُصْفرة الأموات فقالت لى وهى ترتجف :

ـ (أطفئ مصباحك وانظر من شقّ الباب فهل تراهم ؟)

فألصقت عينى بشقّ الباب , فرأيت عند الدرجة الأولى من السلم ثلاثة أشباح , فجرّدت مسدّسى وسمعت أحدهم يقول بلهجة إنجليزية صافية :

ـ (يا سيد « راسنديل « !)

فلم أجب فعاد يقول :

ـ (عندما نحدّثك به فهل تِعدُنا بأن لا تطلق النار قبل أن نفرَغ من الحديث ؟) فقلت :

ـ (أعدكم أنى لن أكون البادئ بإطلاق النار .... فماذا تعرضون علىّ ؟) فقال المتحدث :

ـ (جواز أمان يوصلك الى الحدود , ومليونان من الفرنكات بعملة إنجليزية) . فقالت السيدة هامسة :

ـ (لا تقبل . إنهم خـَونَة .) فقلت :

ـ (عرض سخىّ ولكن أتركوني أفكرّ ...)

وكنت لا أزال أراقبهم من شقّ الباب , فرأيتهم قد وصلوا الى

الدرجة الاخيرة فأدركت أنهم قد قرروا فيما بينهم أن يهجموا علىّ حالما أفتح لهم الباب , فالتفتّ إلى السيدة « أنطوانيت « وهمست فى أذنها :

وأمسكت منضدة الحديد من قائمتيها , وكان ذلك أمراً سهلاً على رجل فى مثل قوتّى , واتخذتها درعاً تقي رأسي وصدري , ثم شككت المصباح فى حزامى واستوثقت من مسدّسى وقلت :

ــ (افتحوا الباب أيها السادة !) فقالوا :

ــ (افتحه أنت فإنه مقفل .) فقلت :

ــ (إنه غير مقفل وهو يفتح الى الحديقة فاسحبوه إليكم .) وكنت قبل ذلك قد أدرت المفتاح فى القفل بخفة ورشاقة , وعُدْت إلى موقفي ودرعي .) فلما فتحوا الباب رأيتهم فى ضوء مصباحى متلازمين متلاصقين والمسدسات مشهورة فى أيديهم , فدوّت في تلك اللحظة ثلاث طلقات تداريتها بمنضدة الحديد , ثم صحت فيهم صيحة عظيمة وهجمت عليهم بتلك المنضدة فوقعنا جميعاً إلى الأرض في حين كانت « أنطوانيت دى موبان « تملأ الجو صراخاً .

وسرْعان ما نهضت واقفاً ورميتهم ثانية بالمنضدة , وجريت الى ناحية السور وأنا أطلق النار يميناً وشمالاً . فرأيت السلّم فتسلقت الجدار وهبطت منه الى الشارع ثم وثبت الى جوادى وحذا « سبت» حذوى وانطلقنا

نخترق الشارع العريض وأنا أقهقه ضاحكاً فقال لي « سبت « متعجباً :

ـ (ما الذى يضحكك ؟) فقلت :

ـ (انتصارى على هؤلاء الابالسة الثلاثة .... وبأى سلاح ؟ احُزر ... بمائدة شاى .... واعلم أنى حافظت على وعدى فلم أكن البادئ فى إطلاق النار ...)

١٠

جرت العادة على أن يقدّم رئيس الشرطة فى صباح كل يوم تقريراً إلى الملك يضمّنه أحوال العاصمة ، وموقف بعض الناس . وكان «سبت» يقرأ لى تلك التقارير .

ففى صباح الليلة التى أفلتّ فيها من قبضة رجال الدوق الثلاثة كنت أنا و» فرتز « نتجاذب أطراف الحديث ، فدخل علينا « سبت» وجلس وهو يقول :

ـ (التقرير اليوم مملوء بالطرائف .)

وقرأ علينا ما يلى :

(سافر فى هذا الصباح سيادة الدوق بصحبة بعض رجاله ، وكان

سفره على عجل , والمظنون انه سافر الى قصر « زندا» وقد ذهب إليها راكباً جواده مؤثراً إياه على قطار سكة الحديد . وبعد ساعة من سفره تبعه السادة « دى جوتل « و « برسونان» و « رتشارد « وهذا الاخير مربوط الذراع ولا يُعْرَف متى جرح , واكبر الظن أنه جرح فى مبارزة . كذلك غادرت العاصمة « مدام دى موبان « بسكة الحديد الى « درسد « والمعروف أن قطار « درسد» يقف فى « زندا « .

والعاصمة مضطرمة بالاقاويل , وكثيرون ينتقدون سلوك جلالة الملك , فيعيبون على جلالته أنه لما يحدّد يوم اقترانه بالأميرة « فلافيا» ويلوح أن سمو الاميرة متضايقة من تردّد جلالته . والشعب يعدّها مخطوبة إلى الدوق على انى لما أذعت في الشعب أن جلالة الملك يحيى الليلة حفلاً ساهراً على شرف الأميرة لهذا النبأ أطيب الأثر .)

فقال « فرتز» و « سبت» وكأنهما متفقان على ذلك :

ــ (عليك ان تطلب يدها الليلة فى الحفلة الساهرة .) فضحكت وقلت :

ــ (على رِسْلِكما أيها الصديقان ! لا تلعبا هكذا بقلوب الناس !)

وفى المساء كانت الحفلة من أبهج الحفلات , وفى أثناء العشاء قدّمت للأميرة وسام الوردة الحمراء الذى كنت أتحلى به , وكذلك عقداً من الألماس ومعنى هذا فى تقاليدهم أنى خطبت يدها , فقابل الحضور هذا العمل من جانبى بعاصفة من التصفيق . وعندما نهضنا عن المائدة وذهبت والأميرة إلى

أحد الأبهاء لنشرب القهوة سألتنى :

ــ (أمدفوعاً بعاطفتك يا « رودلف « خطبت يدى أم نزولاً عند رغبة شعبك ؟) فقلت بصوت مخنوق :

ــ (الحقّ يا عزيزتي أنى أحبّك حباً لا مزيد عليه .) فقالت :

ــ (وأنا أيضاً يا « رودلف « أحبك حباً جماً, ولا أكتمك أنى عرفت هذا الحب من يوم تتويجك .) فقلت :

ــ (افرضى أنى لست الملك أكنت تحبيننى مثل هذا الحب ؟)

وبرز الكولونل « سبت» فى هذه اللحظة وانحنى أمامى وهو يقول :

ــ (مولاى إن نياقة الكردينال يوَدّ أن يستأذن فى الانصراف .)

وتلاقت نظراتنا فقرأت فى عينيه كلمات العتاب والنصح ,أتراه سمع حديثنا ؟ وخرجت إلى البهو المزدحم بالمدعوّين فصافحني الكاردينال مودّعاً داعياً لي العز والتأييد.

وارفضّ السّامر وانتهى الحفل , ووجدتنى فى مخدعى مع الكولونل « سبت» فقلت له :

ــ (لقد فهمت معنى نظراتك , ولكن مكره أخاك لا بطل , فالموقف أصبح حرجاً ولابدّ من أن نختم فصول هذه الرواية ..... فناشدتك الله إلا ذهبنا الى « زندا» وسحقنا الدوق وأعدنا الملك الى عرشه وشعبه وخطيبته !) فقال « سبت» :

ــ (سنذهب الى «زندا «)

فسُرِّى عنى , وبت أنتظر اليوم المناسب للذهاب الى تلك المدينة وتصفية الحساب مع الدوق الاسود .

وفى ضحى النهار رأيت قدمىّ تقوداننى إلى قصر الأميرة « فلافيا» فقابلت الكونتيس « هلجا « فى الحديقة وكانت تقطف بعض الأزهار لسيدتها فجرت تنبئ الأميرة بقدومي . وما هى الا دقائق قليلة حتى كنت أنا والأميرة نتحدث في مختلف الشؤون , فأطلعتنى على رسالتين تلقّتهما في ذلك الصباح : الأولى من الدوق يدعوها لقضاء بضعة أيام فى قصر «زندا» جرياً على عادتها فى ربيع كل عام عندما تكون الطبيعة مؤنقة مزدهرة . والثانية كانت غفلاً عن الإمضاء ولكن عندما قدّمتها الأميرة إلى فوقعت عيني على الخط فيها عرفت أنها من « مدام دى موبان» فقد جاء فيها :

(ليس هناك أى سبب يدعونى الى محبتك , غير أننى أدعو الله أن ينقذك من قبضة الدوق الاسود , فلا تقبلى أية دعوة يوجهها اليك , ولا تذهبى الى أى مكان من الأمكنة دون حرس , فكتيبة بأسرها لا تكفى لحراستك , وإذا استطعت فلا تخفى أمر هذه الرسالة عن الجالس على عرش « روريتانيا»)

فلما فرغت من القراءة قالت لى الأميرة :

ــ (ولماذا لم تقل صاحبة الرسالة : « الملك» بدلاً من قولها : «لجالس على عرش « روريتانيا») فقلت :

ـ (أطلب اليك يا أميرتي بحقّ كل عزيز عليك أن تذغى لمضمون هذه الرسالة, فسأصدر اليوم الأوامر المشدّدة لحراسة قصرك , فعدينى أن لا تخرجى منه الا محاطة بكوكبة من الحراس .) فقالت فى شبه ثورة :

ـ (أهو أمر يصدره إلىّ جلالة الملك ؟) فقلت :

ـ (أجل إنه أمر ستطيعينه إذا كنت تحبّيننى ..... فالتمسى أى عذر شئت ولا تذهبي الى « زندا» فقالت وقد بدت على شفتيها ابتسامة جميلة :

ـ (أتحسّ من نفسك القوة لمقاومة الدوق الاسود ؟!) فقلت :

ـ (إنى كفيل بمقاومة جيش من الرجال فى سبيل سلامتك !)

ثم ودّعتها وانصرفت , وعرّجت في طريقي على المارشال « ستراكنز « فقد كنت لمست منه جوانب طيّبة في الوفاء والولاء , فأطلعته على طرف مما يدور فى خَلدَى , وطلبت إليه أن يشدّد الحراسة على قصر الأميرة , ولا يدع أى رسول من رسل الدوق يقابلها على انفراد . فنظر الىّ ذلك الشيخ الوقور نظرة طويلة ثم قال :

ـ (مولاى إنك ترمى القفّاز في وجه أخيك !) فقلت :

ـ (مصلحة الوطن تقضى بذلك .... ثم اننى سأتغّيب عن العاصمة بضعة أيام , وسابعث إليك في كل يوم برسالة , فاذا انقضت ثلاثة ايام ولم تتلقى منى شيئاً , فعليك أن تعلن فى المدينة أنى أقـلْتُ الدوق من منصِب حاكم العاصمة , وعهدت إليك في ذلك المنصب .... وبعد ذلك ترسل الى الدوق رسولاً يطلب منه أن يسمح له بقابلة الملك ..... أتتمشّى معي في

التفكير يا مارشال ؟) فقال:

ــ (أجل يا مولاى !) فقلت :

ــ (فاذا مرّت أربع وعشرون ساعة على طلب المقابلة , ولم يسمح الدوق للرسول بالمثول بين يدى الملك , فمعنى ذلك أن الملك قد مات ... فعليك عندئذ أن تعلن خَلَفَه . وأنت تعلم مَنْ يحقّ له أن يرث عرش « روريتانيا «) فقال :

ــ (الاميرة « فلافيا» فقلت:

ــ (أقْسِم لي يا مارشال أنك ستناضل فى سبيل الأميرة حتى الممات!) فقال:

ــ (أقْسِم وأدعو الله أن يحفظ ذاتك فليوح لى يا صاحب الجلالة أنك مقبل على أمر خطر .) فقلت :

ــ (سأصطحب معى الكولونل « سبت « والضابط « فرتز») فقال بصوت أجشّ :

ــ (أذاهب أنت يا مولاى فى أثر الدوق ؟) فقلت :

ــ (أجل فى أثر الدوق وفى أثر رجل آخر مقيم فى « زندا « فقال:

ــ (أوَدّ أن أصحبك يا مولاى , وأن أطلق الرصاصة الأولى في سبيلك وسبيل العرش !) فقلت :

ــ (إنى تارك فى حراستك من هو أعزّ علىّ من الحياة .) فقال :

ـ (سألّك الأميرة سليمة معافاة أو أنادى بها ملكة على عرش «روريتانيا »)

وافترقنا وعدت الى القصر , وأطلعت « سبت» و» فرتز» على كل ما حدث فوافقانى عليه , وقرّ رأينا على الرحيل فى صباح غد بحجة الذهاب الى الصيد .

وفى المساء ذهبت أودّع الأميرة فألفيتها غضبى من رحيلى الى الصيد, فما زلت أهدّئ من روعها , وأطيّب خاطرها حتى أفهمتها أنى ذاهب أقاوم الدوق فى عرينه . فزوّدتني بالنصائح والدعوات ودموعها تنسكب على وجنتيها الورديتين , وخرجت من لدُنها وقلبي ممزّق النيّاط....

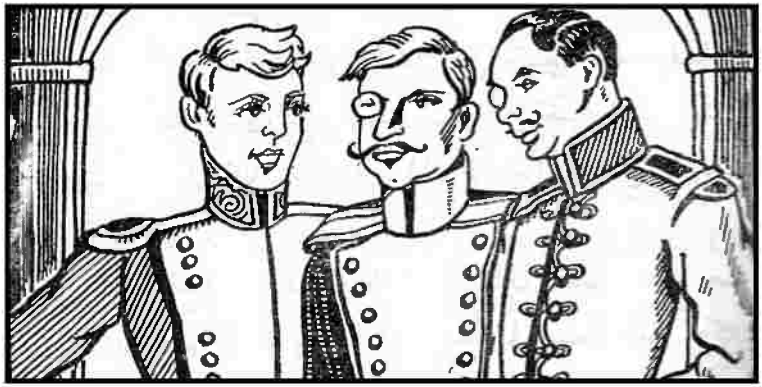

١١

كان لقريب من أقارب «فرتز» منزل في «زندا» يبعد نحو خمسة أميال عن قصر الدوق , وكان صاحبه لا ينزل به إلا لماماً , فسعى «فرتز» إلى أن يستضيفنا فيه مدة أيام الصيد في غابات «زندا» فأصدر «سبت» أوامره إلى الخدم بأن يسبقونا إلى المنزل , فرحلوا في الصباح الباكر حاملين معهم الأمتعة وأدوات الصيد.

وفى ضحوة النهار لحقنا بهم نحن الثلاثة ومعنا عشرة رجال أشدّاء تخيرهم «سبت» من أوفى الأوفياء للملك , وأنهى إليهم بشئ من غايتنا زاعماً أن الدوق قد سجَن في قصر «زندا» صديقاً حميماً للملك , وإننا ذاهبون ننقذه من ظلم الدوق وعدوانه . وكانوا كلهم لا يحّبون الدوق فأثارت كلمات

«سبت» حفائظهم على الدوق ورجاله .

وفى أثناء الطريق فكّرت طويلاً فيما نحن مقبلون عليه , فبدا لي أن استعمال الحيلة أجدى وأنفع , فالدوق ليس من الغَباء بحيث يصدّق أننا قادمون للصيد في غابات «زندا» ولا شك أنه قد اتّخذ كل الأسباب لمواجهة القوة بالقوة .

فما كِدْنا نصل إلى « زندا» ونستقر في منزل الضيافة حتى بعث الدوق إلىّ بوفدٍ من رجاله يرحب بي ويتمنى لي طيب الإقامة . وكان الوفد مؤلفاً من ثلاثة رجال هم القسم الثاني من عصابته , وكان على رأسهم زعيمهم «روبرت» فاعتذر عن الدوق قائلاً. إنه لم يخفّ إلى استقبالي بسبب وعكة ملمّة به وإنه لا يستطيع أن يضع قصره تحت تصرفي حرصاً منه على سلامتي , فبعض رجاله مصاب فيه بمرض معدٍ , وحالة القصر من هذه الوجهة لا تليق باستقبال أحد فيه .

وكان « روبرت» هذا وهو يتكلم لا يفتأ ينظر إلىّ نظرات ملؤها الوقاحة والتحدي , فتجاهلت معناها , ورددت على تحيّته بأحسن منها, وحّملته إلى أخي الدوق أوفر الشوق وأطيب التحية . ولما استأذن هو وزميلاه في الانصراف شيعتهم بمثل نظراتهم , ووعدتهم بأن نلتقي قريباً لأزداد بهم معرفة .

تركت « سبت» في مساء ذلك اليوم يتعشّى مع رجاله , وخرجت أنا و « فرتز» وامتطينا جوادينا , وسرنا إلى قلب المدينة في « زندا» فسألني

« فرتز» قائلاً :

ــ (إلى أين يا صاح ؟) فقلت :

ــ (سنتعشّى في فندق أعرفه , فما عليك إلا أن تقول إننا رجلان من حاشية الملك , وإن أحدنا , وهو أنا , مصاب بألم شديد في أضراسه , ولهذا سنتعشّى في غرفة خاصة.) فقال « فرتز» :

ــ (ولكن الحيلة لن تنطلي على أصحاب الفندق فسوف يعرفونك.) فقلت :

ــ (سأتلثّم ما استطعت , فليس المهمّ أن يعرفوني أو لا يعرفوني بل المهمّ أن تسعى أنت إلى إغراء الفتاة الشقراء بأن تقوم هي على خدمتنا.)

وصلنا إلى الفندق وكان نفس الفندق الذي كنت نزلتُ به عند قدومي إلى « زندا « فدخلناه وجلست في أحد المقاعد متصنعاً الألم لأخفى وجهي عن أصحاب الفضول , في حين كان « فرتز» يكلم صاحبة الفندق ويتقدم إليها بطلباته .

ولم تمض علينا برهة يسيرة حتى كنا وحدنا في غرفة خاصة , ولقد استطاع « فرتز» بلباقة وكياسته أن يحمل الفتاة الشقراء على أن تختص بخدمتنا , فأقبلت بعد قليل لتعدّ لنا المائدة فقالت لي :

ــ (أتتألم كثيراً يا سيدي ؟) فأزحتُ المِعْطَف عن وجهي فتراجعت الفتاة مضطربة وقالت :

ـ (الملك ! لقد قلت هذا لأمي ..... إني عرفتك يا مولاي من الصور التي نشرت لك في هذه الأيام .) فقلت :

ـ (وافينا بالطعام وحذار أن تقولي لأحد إن الملك هنا .) فقالت:

ـ (سمعا وطاعة يل مولاي !)

وانفلتت وأقبلت بعد دقائق تحمل أطباق الطعام فقلت لها :

ـ (وكيف حال « حنا») فقالت :

ـ (إنه كثير العمل في قصر الدوق فقد عهد إليه في القيام على خدمة سيدة عظيمة نزلت بالقصر .) فقلت :

ـ (أمخلصةٌ أنت للملك ؟) فقالت :

ـ (كلَّ الإخلاص يا مولاي !) فقلت :

ـ (اطلبي إذن من « حنا» أن يقابلك في الساعة العاشرة من مساء غد عند الكيلومتر الثاني من طريق « زندا») فقالت :

ـ (ألن يلحَق به أذى ؟) فقلت :

ـ (لن يصيبه مكروه إذا نفّذ ما يؤمر به ..... هيّا قومي أنت بما أطلبه منك ، وحذار أن يعلم أحد بقدوم الملك إلى هذا المكان !)

فانصرفت الفتاة مضطربة متلعثمة بعد أن نفحتُها بمبلغ من المال.

ثم تعشّيت أنا و» فرتز» وقمت فارتديت مِعْطفَي وقنّعتُ به وجهي ، وخرجنا من الفندق وامتطينا الجوادين وانطلقنا بهما حتى اجتزنا المدينة ووصلنا إلى المنزل الذي نزلنا به ، وكانت الساعة حوالي التاسعة فما إن

سمع « سبت» وقع حوافر جوادينا حتى هُرع إلى استقبالنِا وهو يحمد الله على سلامتنا وقص علىّ كيف أن أحد رجالنا خرج بعد العشاء يتمشّى قليلاً في تلك الأرجاء , فلمح رجالاً ثلاثة متدارين وراء بعض الأشجار فأطلقوا عليه النار , ولما كان أعزل من السلاح فقد ولى الأدبار هارباً وعاد إلى المنزل , فلحقوه بالرصاص فأصيب في ذراعه , وتحامل على نفسه حتى وصل إلينا وسقط مغمياً عليه . ثم نظر « سبت» إلىّ وقال :

ـ (لقد كنت أنت المقصود فالحمد لله على سلامتك !)

١٢

استيقظتُ في صباح اليوم التالي وملء إهابى النشاط و الحماسة , فأصدرت بعض الأوامر , وجلست في حديقة القصر أمتّع نفسي بأشعة الشمس وحرارتها , وأستمع لبعض رجالي يقصّون علىّ الحكايات والنوادر . وعلى حين غرّة برز أمامنا « روبرت» اللعين , وكأنه إبليس قد قذفته طيّات الأرض , فحّياني باحترام متصنّع , وقال لي إنه يحمل إلىّ رسالة شفوية من الدوق , ويرجو أن يبلغّني إياها على انفراد . فأشرتُ إلى من كان حولي بالانصراف فانصرفوا , وبقيت و « روبرت» وجهاً لوجه فقال :

ــ (الآن وقد أصبحنا منفردين فأصغ إلىّ يا « راسنديل «)فقلت:

ـ (إنك بحضرة الملك يا هذا , فالزم الوقار الواجب وإلا أمرت رجالي بطردك شرَّ طرد !) فقال وهو ينُفُض غُبار حذائه بقفّازه :

ـ (فيمَ نُطيل هذه المهزلة يا صاحب الجلالة ..... إن الدوق يعرِض عليك جواز مرورٍ إلى الحدود , ومبلغ مليونٍ من الكورونات .... أما أنا فلو كان الأمر متروكاً لي لما كان نصيبك منى إلا حبل المِشْنَقَة...,

فقلت :

ـ (لو خيّرتُ بين العَرْضَيْن لاخترت حبل المِشْنَقة) فقال :

ـ (معنى هذا أنك ترفُض عَرْض الدوق .) فقلت :

ـ (كلَّ الرَّفض !) فقال :

ـ (ليكن إذن ما شئت , فحبل المشنقة ينتظرك .) فقلت :

ـ (لا إخالك نحيا طويلاً يا هذا لتراني ضحيّة المشنقة .)فقال:

ـ (أتتحداني يا صاحب الجلالة ؟) فقلت :

ـ (لستَ أهلاً لهذا ... كيف حال سجينكم ؟) فقال :

ـ (إنه لا يزال من الأحياء !)

ثم نهض ومدّ يده اليمنى ليصافحني مودّعاً , فأبيت عليه هذا الشرف ووضعت يدي وراء ظهري , فما كان منه إلا أن جرّد خِـنْجَره بيده اليسرى , وأهوى به علىّ . فلمحت حركته ولكن فوجئت بالمباغتة السريعة , وبجرأته المنعدمة النظير , فقفزت إلى اليمين لأتلافى الضربة فأصابني في كَـتِفِي , ثم رأيته يطير بسرعة البرق إلى جواده , ويقفِز إلى

سَرْجه من بعد عدة أمتار , وينطلق به انطلاق السّهم , فِصْحت برجالي فأقبلوا مسرعين , وكأنهم أدركوا أن هذا الشيطان اللعين قد اعتدى عليّ فأمطروه وابلاً من الرصاص , ولكنه كان قد غاب عن الأنظار .

وكان الدم يتدفق غزيراً من جرحى , فخارت قواي و أغمى عليّ, ولم أصْحُ إلا في المساء , فرأيت « فرتز» جالساً إلى جانب سريري , فضّمد لي جرحى ثانية واستسلمت إلى الرقاد .

وفى الصباح أخبرني « فرتز» أن « حنا» حارس غابة الدوق قد وقع في الفخ الذي نُصب له , وأنهم قبضوا عليه وقادوه إلى هنا , ولكن يلوح عليه أنه غير مستاء من أسره .فعلـّلت النفس بالاستفادة من هذا الرجل, فطلبت أن يُحضروه إليّ فحضر في حراسة « سبت» .

ولقد بدى لي من حديثي معه أنه ليس بالرجل الشرّير , وأنه يخدم الدوق عن رهبة لا عن رغبة , فاشتريناه بالمال وضممناه إلى صفوفنا , فعرفنا من أن تحت القصر غرفتين منحوتين في الصخر , يُنْزَل إليهما ببضع درجات في نهاية الجسر . أما الغرفة الأولى فليس لها نوافذ وتضاء بقنديل لا ينطفئ , وأما الثانية فلها نافذة مربعة تُفْضي إلى الخندق المحيط بالقصر . وعلمنا أن الغرفة الأولى يحرسها ليلاً ونهاراً ثلاثة رجال من عصابة الستة , قد أنهى إليهم الدوق بوجوب الدفاع عن الباب دفاع المستميت , فإذا رأوا أنه أوشك يتحطَّم , وأن المهاجمين سينُفذُون منه إلى الغرفة , فعلى « روبرت» أو « ريتشارد» أن يترك زميليه مستمرّين في الدفاع

عن الباب , وأن يدخل الغرفة الثانية ويقتل الملك المسجون فيها . وكانوا قد سجنوه في تلك الغرفة , وقـّيدوه بالسلاسل . فسألت « حنا» :

ــ (وماذا يفعلون بجثته ؟) فقال « حنا» :

ــ (بينما يكون اثنان منهم يستميتان في الدفاع عن الباب , يكون الثالث قد دخل وقتل الملك . فما عليه عندئذ إلا أن يزيح قُضبْان النافذة , وهى قضبان متحركة , ويربط جثة الملك بأثقال من الحديد , ويرفعه بواسطة بـَكرَةَ حتى النافذة فيرميه منها .

والنافذة الآن لا يتسرّب منها إلا بصيص من النور , لأنها مسدودة بمدخل أنبوبة كبير من الآجُرّ , تـّتسع لجثـّة رجلين , وتنتهي تلك الأنبوبة حتى تصل إلى الماء الذي يملأ الخندق , فتتدحرج جـّثة الملك في تلك الأنبوبة حتى تصل إلى الماء وتغوص في الأعماق. وعلى القاتل أن يصيح عندئذ : « كل شئ على ما يرام « ثم ينحدر هو وزميلاه إلى الخندق بطريق تلك الأنبوبة , فيتجاوزونه سباحة حتى الضفة , وهناك يجدون نـَفَراً من الرجال قد أعدّوا لهم الجياد فيركبونها ويهربون , ثم يلحق بهم الدوق إذا سارت الأمور على غير ما يشتهى .

تلك هي خطة الدوق يا سيدي للتخلّص من الملك إذا رأى أن يتخلص منه ولكنه لن يعمد إليها إلا عند الضرورة القُصْوى , فليس من مصلحته أن يغتال الملك ما دمتَ أنت على قيد الحياة .... فأسألك يا سيدي أن تجنّبني غضب الدوق وانتقامه .... «

سمعت الرجل يسرد خُطة الدوق وأنا مستلقٍ إلى السرير , فعندما انّتهى من روايته سبح ذهنيٍ في فضاء من الأفكار , أُرجّح رأياً على رأى , وأغلّب فكرة على فكرة وحالاً على حال , وخرجت من تفكيري إلى نتيجةٍ واحدة لا ثاني لها : ذلك أنى سواء هاجمت القصر بقوة كبيرة أم هاجمته بقوة صغيرة , فالملك في خطر داهم , فانتصاري الظاهر سيُفقْده الحياة فسألت « حنا» :

ــ (أيعرف الملك المصير الذي ينتظره ؟) فقال :

ــ (أعترف لك يا سيدي أنى أنا وأخي قد قمنا ببناء الأنبوبة على مرأى من « روبرت» وإرشاده , فلما سأله الملك عن ذلك أجابه بوقاحة وصَلـَف وقال له :

« إنه سُلمّ يعقوب ... ألم تسمع يا صاحب الجلالة بسلّم يعقوب... إنه المجاز الذي ينقل الأحياء من الدنيا إلى الآخرة .... ولقد رأينا أنه لا يليق بجلالتكم إذا أردتم الانتقال إلى العالم الثاني , أن تحذوا حَذْوَة الدَّهمْاء من البَشَر , فأعددنا لكم هذا الطريق لتسلكوه وتكونوا فيه بِمَعْزل عن أنظار الجماهير ... لمثل هذا الغرض بنينا هذه الأنبوبة يا صاحب الجلالة « .

إن « روبرت» هذا يا سيدي شيطان في صورة إنسان .

فرغ الرجل من حديثه , فرجوت « فرتز» أن يذهب به ويشدّد

الحراسة عليه ولما توارى الرجل عن نظري قلت أخاطب «سبت» :

ــ (لا أرى غير وسيلتين نستطيع بهما إنقاذ الملك . أما الأولى فأن يخون الدوقَ أحدُ رجاله .) فقاطعني « سبت» قائلاً :

ــ (اطرح هذه الوسيلة جانباً فذلك محال ! .....) فقلت

ــ (إني لأعتمد على هذه الوسيلة فهي أقرب إلى التحقيق من الوسيلة الثانية التي في ذهني .) فقال :

ــ (وما الوسيلة الثانية ؟) فقلت :

ــ (مُعْجِزة من السماء !)

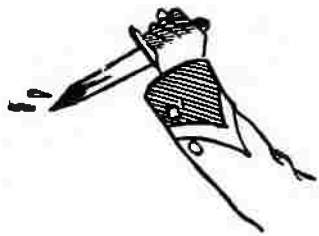

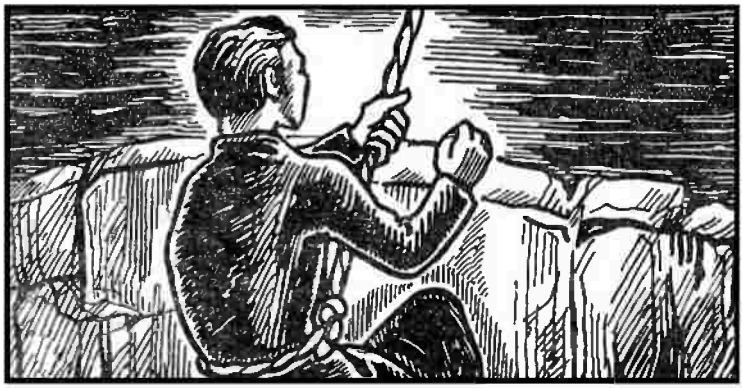

١٣

أذاعت التقارير الرسمية في طول البلاد وعرضها أنى مريض , وأنى أصبت بجرح بالغ في رحلة من رحلات الصيد . و كنت أنا الذي أملي النشرات الطبية وأهول فيها وأبالغ , وأزعم أن حالتي الصحية سيئة جداً.

ولقد أبَيْتُ على مجمع الأطبّاء شرف مداواتي فاستاء من ذلك كلّ الاستياء , ولم أسمح إلا لطبيب واحد كان « فرتز» يعرفه ويثق به بأن يتولى في العَلانية معالجتي , وفي السر كتمان مل لا أريد أن أبوح به .

وزاد الموقف حرجاً رسالة وردت لي من المارشال يخبرني فيها أن الأميرة « فلافيا» قد تملكها الجزع على صحتي , فهي في طريقها إلى

« زندا» ثم زاد الطينَ بلـّة ما علمته من أن الدوق يهزأ بي , ويعرف أنى لست مريضاً , وأنى أعجز من أن أستطيع مهاجمته في عـُقْر قلعته .

عرفت هذا الخبر من « حنا» فقد أبدى لي من الإخلاص ما جعلني أثق به , فأطلقت َسراحه وأنهيت إليه أن يعود إلى خدمة الدوق ويوافيني بأنبائه .

تداولت أنا و «سبت» و « فرتز» الرأي في موقفنا , فرأينا وجوب الإسراع في العمل , ولا سيما أن أنباء « حنا» كانت تشير إلى سوء حالة الملك , فالضجر والحزن والقلق كانت أنياباً قارضة تنهش جسمه .

وفى المساء تناولت العشاء مع الأميرة « فلافيا « وكانت قد وصلت إلى ضاحية « زندا» وأقبلت تواً إلى المنزل الذي كنا فيه , مُصرّةً على أن تتولـّى هي نفسها مداواتي وتضميد جراحي . فأشرق وجهها وتهلل لما رأتني سليماً ممتلئاً صحة وشباباً , فلما نهضنا عن العشاء أوصلتها إلى مخدعها, وتمنيت لها ليلة سعيدة , وعـُدْت إلى مخدعي فبدلت ثيابي وخرجت .

وكان «سبت» و «فرتز» في انتظاري وهما مدجّجان بالسلاح , يتخايلان على جواديهما ووراءهما ستـّة من رجالنا , قد ارتدى كل منهم شِكة كاملة من السلاح واعتلى صهوة جواد أصيل . وكان « سبت» قد علـّق على َسْرج جواده لفـّة من الحبال , أما أنا فاكتفيت من السلاح بهراوة غليظة وسكـّين طويلة .

مشينا نحو ساعة في منعرجات الطرُق حتى وصلنا إلى التلّ المشرف على قصر « زندا» وكانت الليلة حالكة السواد شديدة العواصف , غزيرة الأمطار والرياح .

وهبطنا من التلّ حتى أصبحنا على مسافة ربع ميل من القصر, فتوقفنا وأصدرت أمري إلى الفرسان الستّة بانتظارنا في قلب الغابة أو بالجري إلينا إذا سمعوا صوت صفّارة « سبت» .

وتابعت السّير أنا و « سبت» و « فرتز» فبلغنا التل الشرف على الخندق المحيط بالقصر . وكان في ضفّة الخندق شجرة باسقة فربط « سبت» بها الحبل الذي كان قد جلبه معه , فودّعت زميليَّ على كُرْه منهما, ووضعت الهِراوة بين أسناني ثم خلعت حذائي وأمسكت بالحبل, وانحدرت بواسطتة إلى الخندق , وغرضي أن أرى سُلّم يعقوب عن كَسَبٍ. فسبحت حول جدران القصر , ولم أكن أرى إلى أبعد من ثلاثة أمتار. وكان المبنى الحديث من القصر يسطع النور في بعض غرفه , وكان يطرق مسمعي بين حين وأخر قهقهة ضحك تنبعث من تلك الغرفة المنارة, فعرفت فيها صوت اللعين « روبرت» .

ورجعت في نفسي إلى الوصف الذي أنهاه إليّ « حنا» عن غرف القصر ومحبِس الملك فعرفت أنى غير بعيد عن نافذة المحبِس , فاقتربت قليلاً في حرص وحذر , فلمحت في وسط ذلك الظلام شبحاً طويلاً ,

فتبيـّنته فإذا هو الأنبوبة المنحدرة من النافذة إلى الماء , ويبلغ طولها نحو متر ونصف متر , وعرضها ضخامة رجلين مجتمعين . وكدت أقترب من تلك الأنبوبة , ولكن حدث ما سمّرنى في مكاني وزاد في دقـّات قلبي , فقد رأيت زورقاً صغيراً عند نهاية الأنبوبة , وأحسست بحركة رجل يتلفـّت وراءه , فتفقـّدت سكيني وغطست في الماء , فعثرتْ قدمي تحت الماء بشئ صلب أشبه بمبنى من المباني , فعلمت أنه رصيف تحت الماء يحيط بجدران القصر , فوقفت عليه والماء لا يكاد يصل إلى صدري, وأخذت أخترق بنظري ذلك الظلام الكثيف فاستطعت أن أرى رجلاً مستلقياً إلى صدر الزورق , وبجانبه بندقية تلمع في الظلام فـُوَّهَتها , فحبست أنفاسي في صدري , وأرهفت أذني , فسمعت غطيط الرجل وعلمت أنه الحارس المكلف حـِراسة الأنبوبة , وأنه مستغرق في النوم . فركعت على الرصيف الذي كنت واقفاً عليه , وزحفت رويداً رويداً إلى مكان الرجل حتى أصبحت منه على بعد نصف متر , فحدقت إليه فإذا هو « ماكس هولف» أخو « حنا» فامتدّت يدي إلى سكيني , واقتربت منه ففتح في هذه اللحظة عينيه , ونظر إلىّ مذعوراً ثم تناول بندقيته فلم أمكـّنه منها لأن سكيني كانت قد اخترقت قلبه .

لست أدرى أمصيباً كنت في عملي هذا أم غير مصيب , على أنني لم أفكر عندئذ إلا في أن الملك يحوم حوله خطر الموت , وأن المروءة تحدوني

إلى إنقاذه .

وتركت جثة الرجل غير حافل بها , وتوجهت إلى الأنبوبة , وأدخلت رأسي من فتحتها فتسرّب إليّ بصيص من النور , وسمعت صوتاً أجشّ يقول :

ــ (إذا كان مولاي متضايقاً من صحبتي فإني ذاهب عنه وتاركه يستريح .)

فعرفت في صاحب الصوت ومن لهجته الإنجليزية أنه « ريتشارد» ثم سمعته يستأنف الكلام ويقول :

ــ (هل يحتاج مولاي إلى شئ فأقضيه له قبل أن أنصرف ؟) فقال الملك بصوت خافت ضعيف :

ــ (قل لأخي ليرحمْني وليقْتلني ولا يتركني إلى هذا الموت البطئ !) فقال « ريتشارد» متهكماً :

ــ (إن الدوق لا يرغب في موتك يا صاحب الجلالة , ففي اليوم الذي يحلو له فيه أن تموت فهذه النافذة هي طريقك للسماء ...)

وانطفأ النور بعد ذلك , فأدركت أن الوغد قد انصرف . ففكرت في أن أنادى الملك ولكن عدت فعدلت عم هذا الرأي لأن المفاجئة ستخرجه عن وعيه فيكون بذلك هلاكه وهلاكي .

وقفزت إلى الزورق ورميت بجثة الحارس في الماء وأخذت أجذّف حتى وصلت إلى حيث كان « سبت» ينتظرني , وكان عصف الرياح يخفى

أصوات المجداف فأدلى « سبت» إليّ بالحبل , وقبل أن أهمّ بتسلق الحبل سمعت صوتاً يصيح قائلاً :(ماكس ! ماكس !) وبعد دقائق قليلة كنت على ضفّة الخندق , فأوعزت إلى « سبت» أن يستدعى رجالنا . ومرّ بنا في ذلك الوقت ثلاثة فرسان كانوا مقبلين من ناحية القصر , فرأيناهم ولم يرونا . فتوقّفوا هنية عندما سمعوا وقع حوافر الجياد وهى مقبلة تحمل على ظهورها رجالنا الستة وسمعت أنا أحدهم يقول :

ــ (ما أشدّ سواد هذا الليل !)

فاختلج فؤادي ولست أدرى أمن الخوف أم من الفرح , فقد كان الصوت صوت « روبرت» الداهية . وبدأ رجالنا يطلقون النار كيفما أتفق ورفعت أنا هِراوتي لأهوى بها على رأس من كان قريباً منى من هؤلاء الرجال الثلاثة , ولكنه عالجني بضربة من سيفه قَدَّت الهِراوة شطرين و أتبعها بعبارة هازئة خاطبني بها قائلاً :

ــ (أهذا أنت أيها الممثّل ؟ !)

وكان الرصاص قد استقر في جسم زميليه فطرحهما أرضاً , وكادت الدائرة تدور على « روبرت» هذا لولا أنه رأى من صواب الرأي أن يركَن إلى الفرار بعد أن أصبح وحيداً في الميدان ولا سلاح معه غير سيفه , فاستفاد من حَلَك الظلام , وقفز بجواده قفزة هائلة , وعاد إلى قصر « زندا» في حين كان الرصاص ينهمر وراءه ولا يصيبه .

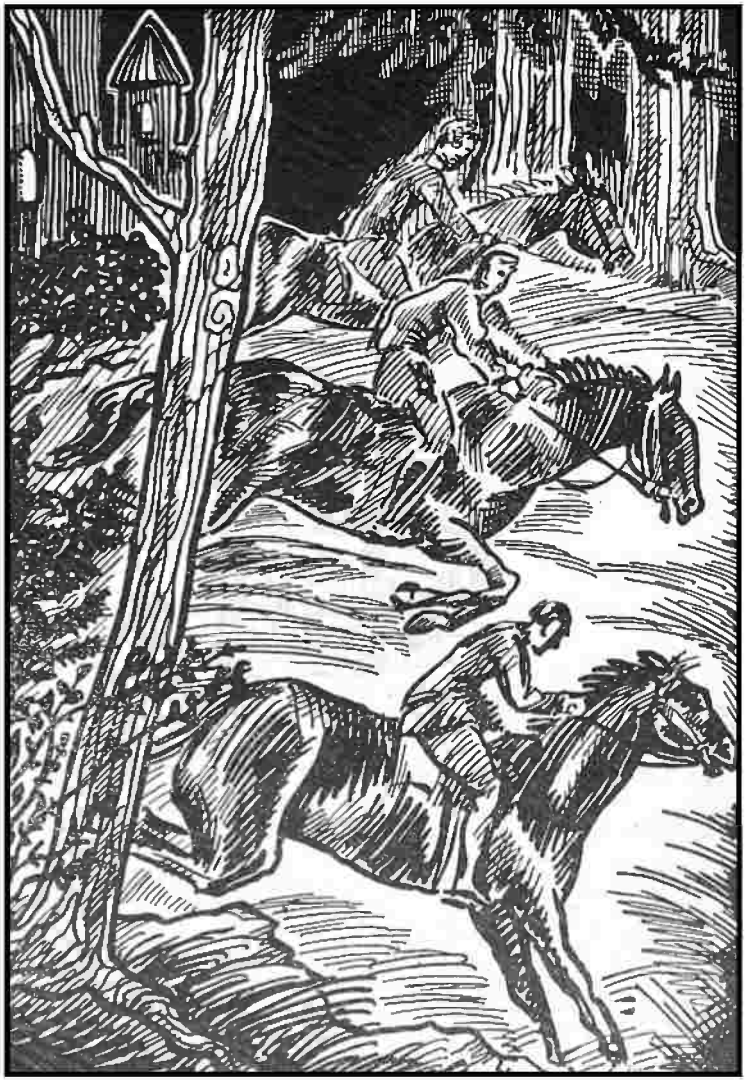

ولما رجعنا إلى أنفسنا , رأينا زميليه « لونجرام » و « كرافستاين» جثتين بلا روح , وخسرنا نحن ثلاثة من رجالنا , فحزنت عليهم أشدّ الحزن وساءني أن ينجو ذلك الوغد بنفسه وأن يكسِب هذه الجولة الأولى...

١٤

كانت المبارزة في « روريتانيا» أمراً شائعاً في ذلك العهد , وكان النبلاء والكبراء حتى أتباعهم يفزَعون إلى السيف والرّصاص في فضّ منازعاتهم , فأوعزت إلى المقربين إليّ بأنْ يشيعوا في المدينة أن رجالي الثلاثة ورجـُلي الدوق الاثنين إنما قتلوا على أثر مبارزة جرت بين هذين وأولئك , فعزّاني الدوق عن رجالي كما عزّيته عن تابعيه , وأصدرت بعد ذلك أمراً بتحريم المبارزة إلا لسبب خطير . فكنت والدوق ألدّ عدوّين في الباطن , وأصدق أخوين في الظاهر , وكان الجمهور هو المخدوع ...

واتفق لي غداة تلك الليلة أن خرجت أنا والأميرة « فلافيا» و « سبت»

نتنزّه في بعض البِقاع , فمرت بنا مركبة يقودها رجل من رجال الدولة , فلم يكد يراني حتى وقف المركبة , ووثب إلى الأرض يحيّيني تحية جليلة , وكان رئيس شرطة العاصمة فقلت له :

ــ (ما الذي جاء بك إلى « زندا» يا حضرة الرئيس ؟) فقال :

ــ (جئت يا مولاي أؤدّي خدمة لسعادة سفير إنجلترا .) فقلت محتدًّا :

ــ (وما شأن سفير إنجلترا في هذه الديار ؟) فقال :

ــ (لقد كُلّف أن يبحث عن مواطن له انقطعت أخباره عن أهله وأصدقائه منذ شهرين , وهنالك أسباب تحملهم على الظن أنه قد يكون في « زندا» فقلت :

ــ (وما تلك الأسباب ؟) فقال:

ــ (له صديق بباريس يزُعم أنه قد يكون في بلادنا , فضلاً عن أن موظفي سكة الحديد يذكرون أنهم قرؤوا اسمه على حقائبه .) فقلت :

ــ (وما أسمه ؟) فقال :

ــ (« راسنديل» يا مولاي !) ثم قال له بصوت خافت :

ــ (يقال يا مولاي إنه لحِق بسيدة تدعى « مدام دي موبان» ولعله عاشق لها !)

فاتّجه بصري إلى ناحية قصر « زندا « وحذا رئيس الشرطة حذوي,

ثم قال لي بصوت يشبه الهمس :

– (إن السيدة المشار إليها يا مولاي مقيمة بقصر « زندا» ولكن سيادة الدوق لا يطيق المنافسين !) فقلت له بلهجة خطيرة :

ــ (إن هذا الذي تذكره يا حضرة الرئيس لعلى جانب كبير من الخطر, وربما جرّ وراءه مشكلات دولية .... فارجع إلى العاصمة واكتم الأمر كل الكتمان , وأبلغ السفير أنك جادٌّ في أثر مواطنه , ولسوف أولى أنا هذه المسألة ما تستحق من عناية .)

وأعملت مهمازي في شاكلتي الجواد لألحق بالأميرة و « سبت» وكانا قد تقدماني قليلاً فسألتني الأميرة :

ــ (هل أنهيت شؤونك مع الرجل ؟) فقلت «

ــ (على خير ما يكون ..... أرانا قد وصلنا إلى أرض الأعداء أفلا ترغب سمو الأميرة في العودة إلى القصر ؟)

وكنا قد وصلنا إلى التل المشرف على قصر « زندا» فلمحنا موكباً يهبط من القصر , فنصحنا « سبت» بالعودة ولكن الأميرة صمّمت على أن تستوضح أمر ذلك الموكب . فبقينا في أماكننا حتى اقترب الموكب قليلاً واستطعنا أن نتبين منه الأشخاص , فرأينا خادمين يتقدّمان مركبة تجرّها أربعة جياد , وقدُوضع فوق المركبة نعشان مجلّلان بالسواد , وسار وراءها فارس غارق في ثيابه السود فقالت لي الأميرة :

ـ (لا شك أنهما الرجلان اللذان قُتلا في مبارزة أمس !)

فأرسلت بعض أتباعي السائرين وراءنا يستطلع الخبر ويعرف مَنْ يشيّعون , فسبقه إلينا ذلك الفارس المتّشح بالسواد وكان « روبرت» بعد أن أمر الموكب بالتوقف , فحيّاني تحية كلها وقار وإجلال , ولما رآه «سبت» يقترب منا لم يسعه إلا أن يمد يده إلى مسدسه فتبسّم ذلك الإبليس وقال:

ـ (بعثت يا صاحب الجلالة تستفسر عمّن نشيّع إنهما واأسفاه « لونجرام» و «كرافستاين» فقلت :

ـ (إني شديد الأسف يا حضرة الفارس على الحادث الذي ذهب صديقاك ضحيته , ولعل الأمر الذي أصدرته بتحريم المبارزة دليل على أسفي وحزني .) فقالت الأميرة :

ـ (رحمة الله عليهما !) فقال « روبرت « :

ـ (أشكر مولاي على رقة عاطفته ..... كلنا لها يا مولاي فلن يكون صديقاي هذان آخر من يموت .) فقلت :

ـ (تلك حقيقة يجب أن لا ننساها .) فقال :

ـ (نعم يجب على بنى البشر حتى الملوك أن يذكروها !)

ولمحت « سبت» إلى جانبي وهو يكاد يتميّز غيظاً من وقاحة ذلك الشاب العجيب , ويوَدّ لو يهجم عليه ويمزّقه تمزيقاً , فأنقذت الموقف وسألت « روبرت» :

ـ (وكيف حال أخي الدوق ؟) فقال :

ـ (إن صحته في تحسن يا مولاي بعد عدوى المرض التي سرت إليه من أحد أتباعه !) فقلت :

ـ (إن اطراد التحسن في صحته يسّرني ويبهجني .) فقال :

ـ (يأمل سيدي الدوق أن يعود بعد أيام قلائل إلى العاصمة إذا سمحت له صحته بذلك !) فقلت :

ـ (أبلغه تمنياتي ودعائي له بالشّفاء العاجل .) وزادت الأميرة على ذلك فقالت :

ـ (وتمنّياتي أنا أيضا .)

فانحنى « روبرت » بإجلال ما بعده إجلال , فأذنت له في الانصراف فحيّا وأدار عنق جواده وسار به إلى حيث كان الموكب في انتظاره, فأشار إليه بالمسير . ولست أدرى الدافع الذي حداني إلى اللحاق به فاستوقفته وقلت له :

ـ (إنك يا « روبرت» فتى في مقتبل الشباب , فالحياة تنتظرك بمباهجها ومسرّاتها , فإن سلّمتني أسيركم سليماً معافى أعدك بأن أجنّبك كل أذى وضرر !)

فنظر إلىّ نظرة كلها سخرية واستهزاء وقال :

ـ (لقد كنتُ عرضت عليك عرضاً سخياً باسم الدوق .) واليوم

أكلمك بأسمى أنا لا باسم أحد آخر !) ثم أحنى رأسه وقال :

ــ (اهجموا على القصر وليقد « سبت» و « فرتز» المعركة .... في ذلك الهجوم أتكفل أنا بقتل « سبت» و « فرتز» والدوق الأسود وبإرسال الأسير إلى جهنم بطريق سلّم يعقوب ..... أظنك لا تجهل هذا السلم... فلن يبقى بعد تلك المعركة إلا رجلان على قيد الحياة : أنا « روبرت هنترو» وأنت ملك « روريتانيا» وسكت قليلاً ثم قال :

ــ (إنه عرض سخيّ مشوّق أليس كذلك ؟ تظفر فيه بعرش وأميرة... وتجعلني رئيس وزرائك وتعترف لي ما حييت بالفضل والجميل .)

فهالتني جرأة هذا الفتى ووقاحته ثم حيّاني وانصرف ليلحق بالموكب الذي سبقه وهو يقول :

ــ (فكّرْ فيما عرضته عليك .)

رجعت إلى حيث كانت الأميرة و « سبت» ينتظراني وأنا أفكر في هذا الفتى المعجون بالإثم والإجرام , ثم أخذنا طريق العودة إلى القصر وأنا ساهم الوجه مبلبل الفكر , فلم نكد نبلغ باب الحديقة حتى أقترب منى أحد الخدم وسلمني رسالة معنوية بأسمى , ففضضتها وقرأت فيها ما يلي:

(كلفت « حنا « أن يوصل إليك هذه الرسالة . تذكر يا سيدي أنى كنت قد أخلصت لك في النصح . فأناشدك الله وأستحلفك باسم شجاعتك

ورجولتك إلا أنقذني من مأوى القتلة والسفاكين .

ا. دي . م .)

فدفعت بالرسالة إلى « سبت» فقرأها وهزّ رأسه وهو يقول :

ــ (ومن ذا الذي حملها على أن تذهب إلى ذلك المأوى ؟ !)

أما أنا فما وَسِعني فيما بيني وبين نفسي إلا أن أرثي لحال « أنطوانيت دي موبان « ...

١٥

منذ اليوم الذي رآني فيه الناس أحدّث « روبرت» وأجول في شوارع المدينة وضواحيها , أصبح من العسير عليّ أن أدّعى المرض بعد ذلك , وكانت العاصمة لا تنظر بعين الرضي إلى غيابي عنها , ولكنها كانت تتغاضى عن ذلك ما دامت الأميرة ترافقني في ذلك الغياب , وكان يحزّ في صدري أن أعرّض الأميرة للأخطار الجسيمة المحيطة بنا .

وزاد الحال سوءاً أن الدوق أصبح يتحدّاني ولا يحسب لي حساباً, فكان يخرج من قصره , ويطوف بالمدينة , ولا يعنى بأن يزورني ولا أن يقدّم لي اعتذاره عن تخلفه في أداء فروض الإجلال لأخيه الملك . فكان

لابدّ من تجنب ذلك الموقف الشاذّ بيننا وإلا انكشف الأمر ودارت الدائرة علينا .

ولقد اضطُررت كذلك إلى أن أعلن لمارشال الدولة ورئيس الوزراء أن يوم زفاف الأميرة إليّ قد أصبح قريباً, وكانا قد قدِما إلى « زندا» ليطلبا إليّ تحديد الموعد تهدئة للخواطر . فضربت ليوم الزفاف موعد أسبوعين , فكان لذلك النبأ أثره الطيب في نفوس الشعب , وأثره السيئ في نفس الدوق فقد نقل إليّ « حنا « أن الدوق لما وقف على الخبر تملكه غضب شديد فانطلق يسبّ ويشتم ولقد بلغ غضبه الذروة عندما أنهى إليه « روبرت» أنى رجل ينفّذ ما يعد , وأنى لا بدّ متزوج الأميرة ولم يكتف بذلك بل التفت إلى « مدام دي موبان» يهنئها بابتعاد منافستها من طريقها . وروى لي « حنا» أيضاً أن الدوق لما سمع هذا الكلام من « روبرت» عمد إلى سيفه وكاد يجرّده في وجه تابعه , ولكن هذا لم يحفل به و استمرّ يضحك ويستهزئ إلى أن أمره الدوق بالتزام الصمت .

ولم أكترث لهذا الذي رواه لي « حنا» مثل اكتراثي للشقّ الثاني من حديثه, فقد أخبرني أن صحة الملك تزداد سوءاً يوماً بعد يوم , فَسحْنَته تغيرت , وأعصابه تحطمت , حتى خيف عليه من الموت فأرسل الدوق إلى العاصمة يستدعى طبيباً من ثقاته , فلما حضر أبى أن يـُقحم نفسه في هذه المسألة , فاضطّره الدوق إلى ذلك ومنعه من العودة إلى العاصمة ,

وطلب إليه أن يُعْنىَ بصحة الملك السجين ليكون على قيد الحياة طول المدة التي يقدّر له أن يعيش فيها حتى يحين يوم هلاكه , فأذعن الطبيب لأمر الدوق , وأشرك معه « مدام دي موبان» في العناية بالملك والسهر على صحته .

التمس منى « حنا» بعد أن أطلعني على ما يجرى في قصر « زندا» أن أستبقيه عندي وأضّمه إلى خدمي لأنه لا يأمن أن يفشو سّره فينكّل به الدوق تنكيلاً . بيد أنني لم أجبه إلى ملتمسه وإلا فقدت به عوناً ثميناً وعيناً بصيرة. وأنهيت إليه أن يعود إلى قصر» زندا» وأن يكون فيه حذراً يقظاً , وطلبت إليه إبلاغ « مدام دي موبان» أنى أعمل أيضاً في سبيل إنقاذها , راجياً منها أن تدخل على قلب الملك شيئاً من الاطمئنان إذا استطاعت, وأن تؤكد له أن ساعة الخلاص قد قربت , فلعل الأمل يحلّ في قلبه محلَّ اليأس فلا يهلك أسى وحزناً ولوعة.

وقبل أن ينصرف « حنا» سألته :

ــ (لقد مات رجلان من عصابة الستة فمن يقوم الآن على حراسة الملك ؟) فقال:

ــ (اثنان يقومان على حراسته ليلاً وهما الإنجليزي والبلجيكي , واثنان يقومان على حراسته نهاراً وهما « روبرت» و» دي جوتل» الفرنسي.) فقلت :

ـ (إذن لا يحرسه إلا اثنان !) فقال :

ـ (نعم يا سيدي ولكن الرجلين الآخرين ليسا بعيدين منه , فهما ينامان في غرفة تعلو محبس الملك فسوف ينحدران منها بسرعة البرق عند أول نداء أو أول صفير .) فقلت :

ـ (ما كنت أعرف أن فوق محبس الملك غرفة أخرى فهل بينها وبين غرفة الحارسين طريق ما ؟) فقال :

ـ (كلا يا سيدي فيجب للوصول إلى غرفة الحارسين النزول من سلم يتألف من نحو اثني عشرة درجة , ثم الخروج من الباب الذي يفضى إلى الجسر المتحرك ثم الدخول فيها .) فقلت :

ـ (وهل هذه الغرفة مقفلة ؟) فقال :

ـ (نعم يا سيدي , وعند كل من الحراس الأربعة مفتاح لها .) فسألته :

ـ (وأين ينام الدوق ؟) فقال :

ـ (في الطبقة الأولى من القصر , فجناحه يقع إلى يمين الرّواق المؤدّى إلى الجسر المتحرك .) فقلت :

ـ (« ومدام دي موبان » ؟) فقال :

ـ (إلى شمال الرواق في مواجهة جناح الدوق , ولكن يقفل عليها الباب في كل مساء) فقلت:

ـ (أظن أن مفتاح جناح « مدام دي موبان» في حوزة الدوق !) فقال :

ـ (نعم يا سيدي فضلاً عن أن الجسر المتحرك يُرْفع في كل مساء وتسلم مفاتيحه إلى الدوق بحيث لا يستطيع أحد دخول القصر دون الالتجاء إلى الدوق .) فقلت :

ـ (وأين تنام أنت ؟) فقال :

ـ (أنا وخمسة من الخدم في غرفة عند مدخل القصر .) فسألته :

ـ (وهل هم مسلحون ؟) فقال :

ـ (مسلحون بالرماح , فالدوق يخشى شرّهم إذا هو سلّحهم بالمسدسات أو البنادق.)

فقررت أن أبدأ العمل , واستبعدت فكرة اللجوء إلى سلّم يعقوب, فقد أخفقت فيه مرة فلابد من اختيار هدف آخر , ثم التفتّ إلى « حنا» وقلت له :

ـ (لقد وعدتك بعشرين ألف كورون , وسأجعلها خمسين ألفاً إذا قمت بما سأطلبه منك .... هل يعرف هؤلاء الخدم من هو أسير الدوق ؟) فقال :

ـ (كلا يا سيدي فهم يحسبونه عدواً من أعداء الدوق .) فقلت:

ـ (أصْغِ إليّ إذن : غداً في الساعة الثانية صباحاً افتح الباب

العمومي للقصر ... استنبط ؟ أي عذر كان في سبيل ذلك .) فقال :

ــ (أأستطيع يا سيدي أن أهرب منه حالما أفتحه ؟) فقلت:

ــ (نعم لك أن تطلق ساقيك للريح ... خذ هذه الورقة وسلمها إلى « مدام دي موبان» وألحّ عليها في تنفيذ ما هو مكتوب فيها فحياتنا جميعاً رهن بذلك .)

أخذ « حنا» منى الورقة وهو يرتجف من رأسه إلى أخمَص قدميه وانصرف , ولا شك أنني جازفت في الاعتماد عليه ولكنني كنت مكرهاً على ذلك فالوقت يمر سريعاً والملك قد يموت بين لحظة وأخرى .

ثم دعوت « سبت» و « فرتز» وأطلعتهما على الخطة التي ارتأيتها فأمَّنا عليها وتتلخص فيما يلي :

يذهب جماعة من رجالنا بقيادة « سبت» إلى باب القصر العمومي دون أن يراهم أحد , فإذا طلع عليهم في أثناء المسير فضولي أو متطفل أغمدوا خناجركم في صدره . وعليهم أن يصلوا إلى الباب في اللحظة التي يفتحه لهم صديقنا « حنا» فيدخلوا منه ويستولوا على الخدم الخمسة , وأغلب الظن أنهم لن يقاوموا .... عندئذ يسمع في جنح الليل صوت سيدة تستغيث قائلة : إليّ ... إليّ ... المعونة ... المعونة .... يا « ميكل « .... يا « روبرت» ومما لا شك فيه أن الدوق عندما يسمع صوت الاستغاثة فسُيْهَرع من غرفته إلى إغاثة صاحبة الصوت فيقع في يد « سبت» وتستمر

أصوات الاستغاثة فيُنزل رجالنا الجسر المتحرك ولا بد أن يندفع « روبرت» منه إلى مساعدة حبيبته التي تناديه وتستغيث به , وقد يكون معه « دي جوتل» أو لا يكون , فحالما يضع « روبرت « قدمه على الجسر أبرز له وأكون قد بلغت ذلك المكان سباحة من طريق خندق الماء ومعي سلّم أسنده إلى الجسر وأقفز منه إليه و أسيطر على الموقف , فلو مرت الأبالسة منه عندئذ لما نجت من قبضتي , وهكذا عندما نتخلص من « روبرت» وزميله الفرنسي لا يبق لدينا إلا الحارسان الآخران , ولن يصعب علينا التغلب عليهما في تلك الفوضى التي سنُشيعها في القصر . سنكون قد استولينا على مفاتيح محبس الملك وربما اندفع الحارسان إلى نُصْرة زملائهم فتسهل علينا المهمّة بدلاً من تحصنهما وراء الباب واضطرارنا إلى تحطيمه , وقد يرتكب أحدهما جريمة الشنعاء في تلك الأثناء فيقضى على حياة الملك ....

تلك كانت خطتي ولا تخلو من حماقة وجرأة , ولكن كانت الحال الحرجة تمليها عليّ . وكان من تتمّة الخطة أن يضاء منزلنا بالأنوار , وتعزف فيه الموسيقى , وتكثر الحركة إيهاماً لسكان قصر « زندا» أننا نحي ليلة ساهرة فلا تساورهم من نحونا الرّيب والشكوك . وكنت قدّرت كذلك أنه إذا طلع الصباح ولم نعد إلى قواعدنا , فعلى مارشال الدولة أن يزحف إلى قصر « زندا» في أكبر قوة من الجيش , ويطالب علناً بإطلاق سراح الملك . فإذا لم يجد الدوق في القصر , فعليه أن يعود في الحال مع

الأميرة « فلافيا» إلى العاصمة ، ويعلن خيانة الدوق و ويجمع رجال الدولة حول الأميرة ويجلسونها على عرش « روريتانيا « . ولقد كنت أتوقع مثل هذه النهاية فلا أنا ولا الملك ولا الدوق ممن سيطلع عليهم الصباح وهم أحياء يرزقون ...

١٦

كنا في ساعة متأخرة من الليل عندما فرغنا من تدبير خُطتنا في رؤوس مسائلها ومختلف دقائقها ، فلما انتصف الليل خرج «سبت» برجاله واتجه إلى قصر «زندا» ليحتلّ بابه العمومي ، وكان عليهم أن يتركوا جيادهم على بعد نصف ميل من القصر ، وان يتابعوا زحفهم إلى القصر مشياً على الأقدام بلا ضجَّة ولا جلبة ، فيصلوا إليه في الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والأربعين ، ويتأهبوا لدخوله في الساعة الثانية عندما يفتح «حنا» لهم الباب ، فإذا لم يفتح الباب فعلى «فرتز» إن يطوف حول القصر ، ويصل إلى حيث أكون ــ إذا كنت لا أزال حيًّا ــ لأنظر معه هل نهجم على القصر عَنْوَةً وعلناً ؟ فان لم يجدني فعليه أن يخفّ

إلى مسكننا ، ويوقظ المارشال ، ويطلب إليه أن يزحف برجاله إلى قصر «زندا» .

وبعد أن خرج «سبت» برجاله ، خرجت أنا ممتطياً صهوة جوادي ومعي مسدّسي وسيفي ، وحبل لففته حول جسمي ، وسلّم حملته بيدي، فبلغت بعد نصف ساعة نهاية الغابة ، فترجـّلت وربطت رَسَنَ الجياد إلى شجرة ضخمة ، وحمَلت السلّم ومشيت حتى وصلت إلى ضَفـّة الخندق ، فربطت الحبل إلى جزع شجرة كانت على حافة الخندق وهبطت منه إلى الماء . وعندما لمست قدماى الماء سمعت ساعة القصر تدقّ الثلاثة الأرباع بعد منتصف الليل ، فأخذت اسَبح وأنا ادفع السلّم امامى ، وأطوف حول جدران القلعة حتى بلغت سلّم يعقوب ، فوقعت على الرصيف المحيط تحت الماء بجدران القصر.

وكان الجسر المتحرك غير مرفوع وكنت أنا مستنداً إلى جدار غرفة الملك ، وعلى بعد عشرة أمتار من ذلك الجسر . ولمحت وراء الجسر نافذة فقدرت حسبما وصف لي «حنا» أنها نافذة غرفة من جنَاح الدوق ، ولمحت في مواجهتها نافذة أخرى هي ولا شك نافذة غرفة «مدام دي موبان»، ولم تمرّ علىّ عشر دقائق حتى رأيت النور قد انبعث من غرفة الدوق ، وكانت نافذتها غير مُغـْلقة ، فاستطعت ، وأنا في مكاني ، أن أرى ما بداخلها. ولم تكد الغرفة يسطع فيها الضوء حتى تبيـّنت فيها شبح «مدام دي موبان» قد اقترب من النافذة ولحق بها في الحال شبح رجل عرفت فيه

«روبرت» كان يحدّثها حديثاً متواصلاً . فحمل إلىّ الهواء بعض كلامه ، ففهمت منه انه يغريها بالفِرار معه ، وانه يوُغر صدرها على الدوق ، ويثير فيه حفيظتها عليه ، وغيرتها من الأميرة «فلافيا» التي يطمع الدوق في أن يتزوجها بعد أن يقتل الملك ويقتلني قبله ، فكانت السيدة لا تصغي إليه أو لا تقرّه على ما يطلب ويقترح.

وفتح باب الغرفة في أثناء ذلك الحديث ، ودخل منه الدوق وسمعته يقول:

ــ (ماذا تفعل هنا أيها السيد !) فسمعت «روبرت» يجيب بلهجته المتهكمة ويقول:

ــ(كنت أروّح عن السيدة واسلّيها في وَحْدتها !) فقال له الدوق وقد اقترب من النافذة وأشار إلى الخندق:

ــ (إن الخندق عريض واسع ، فإذا شئتُ بعثتُ بك إلى أعماقه لتسلى جثة الملك في وَحْدتها يوم أقرر طرحه فيه...) فقال «روبرت»:

ــ (أوعيدٌ هذا يا سيدي الدوق ؟!) فقال الدوق :

ــ (انه إنذار بمثابة الوعيد !) فقال «روبرت» ساخراً:

ــ (لقد تـَوَعّدت يا سيدي الدوق «رو دلف راسنديل» ولكنه لا يزال على قيد الحياة ...) فكتم الدوق غيظه وقال :

ــ (حسن ... ليس الوقت وقت جدال وكلام ... زميلاك قد تسلما

الحراسة ... وبعد عشر دقائق يرُفع الجسر ، ولا إخالك تودّ أن تذهب إلى غرفتك سباحة ... فمع السلامة !)

وسمعت الباب بعد ذلك يـُفتح ثم يغلق , فأدركت أن «روبرت» قد انصرف .ثم سمعت الباب يفتح ثم يغلق ثانية فأدركت أن «مدام دي موبان» قد ذهبت إلى غرفتها ، وازددت يقيناً من ذلك لما رأيت الدوق يقترب من النافذة ويـُقفل عارضتيها الخشبيتـّين فقلت في نفسي: ترى هل أوصل «حنا» كلمتي إلى «مدام دي موبان» ؟ وهل تقوم بما طلبته منها ؟

وبينما أنا أفكر في هذا سمعت «روبرت» وهو فوق الجسر يقول :

ــ (هيا يا «دي جوتل» عجـّل ! فالجسر يكاد يُرفع !)

وسارع «دي جوتل» إلى زميله ، فتأبّط هذا ذراعه ، واجتاز الرجلان الجسر راكضين ، وما هي إلا دقائق قليلة حتى رفع الجسر وخيّم الصمت والسكون ...

ولشدّ ما كانت دهشتي بعد قليل عندما أحسست بحركة تنبعث من مكان قريب مني ، فدقـّقت النظر فبدا لي شبح «روبرت» واقفاً في الممر المؤدى إلى الجسر ، وبيده سيفه وقد سـَلـّه من غمده ، فبقى كذلك نحو دقيقة أو دقيقتين ثم خطا خطوتين في اتجاهي ، وأخذ ينزل إلى أسفل. فأيقنت أن في الجدار درجات توصل إلى الماء ، فما إن بلغ «روبرت» الدرجة الأخيرة ، حتى وضع سيفه بين أسنانه ، وارتمى في الماء . فخطر

ببالي أن ارتمى وراءه وأدركه وأصفّى حسابي معه ، ولكن صوت العقل أهاب بي إلى أن ارجع عما فكرت فيه ، فقد كانت غايتي أنبل من أن أنتقم لنفسي من ذلك الشرّير سيُحبط الخطة التي دبرناهالانقاذ الملك ، فاكتفيت أن أتبع «روبرت» بالنظر ، وقلبي يخفق خفقاناً شديداً لأرى إلى أين يتجه ذلك الشيطان ، فرأيته اجتاز الخندق إلى الناحية الأخرى من الجسر ، وصَعِد في درجات كانت هناك ، ولما أصبح فى الممر أخرج من جيبه مفتاحا وفتح باباً كان هناك ،واختفى وراءه وأبقى الباب مفتوحاً...

رميت السلّم الذي جئت به معي , وسبحت إلى الجسر , وصعدت في الدرجات المحفورة في الجدار , ولما بلغت إلى وسطها توقفت وجرّدت حسامي وأخذت أنصت بجميع جوارحي ...

كانت غرفة الدوق غير مضاءة , فما كان ينبعث من خلال نافذتها أي بصيص من نور, في حين كانت النافذة المواجهة لها يسطع منها الضوء في ذلك الليل البهيم ,والسكون المخيف الذي مزّقته في تلك اللحظة دقات ساعة البرج تعلن النصف بعد الواحدة....

حاولتُ أن أستشفّ الغرض الذي من أجله عاد « روبرت» أدراجه متقلّداً سيفه المسلول , فلم أقع في تفكيري على خاطر أرتاح إليه , غير أن وجوده في غير الجناح الذي حـُبِس فيه الملك بعث في قلبي شيئاً من الاطمئنان والارتياح , وحمدت اللّه على ذلك فقد نقص من حرّاس

الملك واحد , ولابدّ أن يكون الثاني وهو « دي جوتل» مستسلماً إلى الرُّقاد, فلو كانت المفاتيح في حوزتي لانقضضت على الحارسين الآخرين قبل أن يهرع أحد إلى نجدتهما , ولكن ما هي إلا أضغاث أحلام , فإني مضطرّ أن أنتظر هجوم رفاقي لكي يخرج إليهم مَنْ تكون المفاتيح في جيبه ... فانتظرت على أحرّ من الجمر , وبقيت أسرّح النظر فيما حولي مدة خمس دقائق أو عشر , وأنقله من نافذة الدوق المظلمة المقفلة إلى نافذة « مدام دي موبان» المضيئة , ومن الجسر المتحرك إلى الباب العمومي للقصر حتى سمعت صرير مفتاح يدار في قفل بَحْيطة وبطء.... فتساءلت في نفسي : ترى يد من تدير المفتاح ؟ وأي غرفة تريد أن تفتح ؟ فلم يطل تساؤلي , فقبل الساعة التي يجب أن يصل فيها رفاقي إلى القصر , وقبل الموعد الذي ضربته لصديقنا « حنا» ليفتح فيه الباب العمومي , حدثت في القصر ضجة كبيرة كان مصدرها غرفة « مدام دي موبان « فانطفأ فيها النور فجأة , وسُمع في وسط ذلك السكون صوت تلك السيدة تصيح وتستغيث وتقول : إلىّ يا « ميكل»! إلىّ يا» ميكل» !

كنت أصغى بجميع حواسي إلى ما يحيط بي , فتركت الدرجة التي كنت واقفاً عليها , وصعدت إلى أعلى فوجدتني في الممر الموصل إلى الجسر, ووجدت الناحية الأخرى منه تجويفاً في الحائط يتسع لرجل واحد, فجريت إليه والسيف في يدي , واختبأت فيه . وهكذا أصبحت

سيد الموقف أتحكم في كل من يريد أن يجتاز الجسر ليذهب إلى الجناح العتيق من القصر.....

وأعقبت الاستغاثة استغاثة ثانية , فسمعت صوت باب يُفتح ويغلق بشدة , فما شككت إلا أن الدوق قد خرج من غرفته على صوت الاستغاثة ووثقت من ذلك لما سمعته يهوى بكلتا يديه على باب غرفة « مدام دي موبان» ويصيح قائلاً :

ـ (افتحي افتحي الباب !)

وكان الجواب نفس الكلمات التي أمليتها على « مدام دي موبان» وهى :

ـ (المعونة ! .. « ميكل» ! « روبرت»)

فانهال الدوق على الباب ضرباً وتحطيماً , وهو يقذف من فيه السباب واللعنات .

وفى تلك اللحظة سمعت صرير نافذة تفتح فوق المكان الذي كنت مختبئاً فيه , وصوتاً يقول في قلق واضطراب : « ماذا حدث ؟ « ثم سمعت وقع أقدام مسرعة فشهرت سيفي لأنقضّ به على القادم , وتمنيت أن يكون « دي جوتل» فينقص عضو آخر من العصابة.

وطرق مسمعي أيضاً في تلك اللحظة صليل سيوف ينبعث من غرفة « مدام دي موبان» ثم أعقبه صراخ رجل جريح , وعلى الأثر فتحت النافذة

بعنف فأبصرت منها « روبرت» وقد أسند ظهره إلى النافذة , وهو يضرب بسيفه يميناً وشمالاً وسمعته يصرخ قائلاً :

ــ (أهذا أنت يا « حنا « ؟ خذ هذه الضربة أيضاً فداء سيدك .... مالك تـُهرب ... والآن تعال يا « ميكل» خذ هذه الضربة .. وخذ هذه الضربة ....)

وضح المنظر لعيني وخاطري , فقد صارع « حنا « إلى نجدة الدوق ولكنه نكص على أعقابه منطوياً على جراحه فأخفقت الخطة التي كنا دبـّرناها , فما من أحد يفتح الباب العمومي لأصحابي , وسمعت الدوق يستغيث ولكن بصوت خافت , ثم سمعت صوت حركة منبعثة من الممر المؤدى إلى محبس الملك , وقبل أن أتبيـّنها رأيت خمسة رجال أو ستة قد أحاطوا بالداهية « روبرت» وهو يدفعهم عنه بسيفه الطويل , حتى إذا انتهز فرصة نكوثهم عنه قليلاً , قفز إلى حافة النافذة ورمى بنفسه في الماء وهو يقهقه ضاحكاً ويلوح بالسيف الذي في يده .....

ولم أستطع أن أتحقق من الوجهة التي سبح إليها , فقد برز لي في تلك الدقيقة « دي جوتل» وهو شاحب الوجه ممتقع اللون فضربته بالسيف ضربة قاضية خرّ على أثرها صريعاً , وانكببت عليه أفتش في جيوبه , فعثرت فيها على ثلاثة مفاتيح , فجرّبت أضخمها في الباب المفضي إلى القبو الذي سجنوا فيه الملك . فانفتح , فأخرجت المفتاح ووضعته في جيبي ودخلت على رؤوس أصابعي , فإذا بي من ناحية سلم حجري يضيئه

مصباح صغير معلّق على الحائط , فوقفت أتنصّت فسمعت صوتاً صادراً من وراء الباب الذي في أسفل السلم يقول في شئ من القلق :

ــ (ماذا يحدث ؟) فيجيبه صوت آخر :

ــ (هل نقتله ؟)

فكتمت أنفاسي لأسمع الجواب عن ذلك السؤال الرهيب , فكدت أقفز من الفرح لما تبيّنت صوت « ريتشارد» يقول بلهجته الباردة الثقيلة :

ــ (انتظر قليلاً فالإسراع قد يعرّضنا لوخيم العواقب !)

وانتهى إلىّ بعد ذلك وقعُ أقدام وحركة يدٍ تدير المفتاح في ذلك الباب الذي ينتهي عنده الباب الحجري , فأطفأت المصباح الصغير وسمعت من فتح الباب يقول لزميله :

ــ (الظلام دامس , والمصباح في السلّم قد انطفأ . هات المصباح الذي عندك .)

وقبل أن أترك لهما فرصة الاعتماد على مصباحهما الثاني , هبطت درج السلّم هبوط الصخر المتدحرج إلى الهاوية , وانقضضت عليهما انقضاض الصاعقة , فتصدّى لي « برسونان» البلجيكي فعالجته بضربة سيف مميتة سقط على أثرها جثة هامدة , والتفتُّ إلى زميله الإنجليزي لأُلحقه به فلم أجده , فقد كان دخل حجرة الملك وأغلق بابها وراءه , فأسْقِط في يدي , وأيقنت أن الملك مائت لا محالة تنفيذاً لأوامر الدوق في

مثل هذه الحال ، فارتميت على الباب أحاول فتحه بيدي وكتفي وجسمي كله ، وما زلت أعالجه حتى انفتح فيا لهول ما رأيت :

رأيت الملك في زاوية من الحجرة عليلاً مريضاً ، شاحب اللون مضطرب الأعصاب ، ينظر إلى «ريتشارد» والى طبيبه وهما يتصارعان في وسط الحجرة ، ففي سبيل الملك كان الطبيب قد ألقى بنفسه على «ريتشارد» ليمنعه من الوصول إلى الملك ، غير أن «ريتشارد» ما عـتّم أن نجا من قبضة خصمه ، وفى الثانية التي دخلت فيها الغرفة كان قد أغمد سيفه في قلب الطبيب ، فلما رآني هجم علىّ وقال :

ــ (جاءت نوبتك أيها الدجـّال !)

فما زلنا نتبارز ونتصارع ، بالأيدي حيناً وبالسيف حيناً آخر ، ولا ينال أحد من الآخر مأرباً حتى سمعت الملك يقول :

ــ (يا للّه ! هذا ابن عمى «رو دلف» ها أنا ذا يا ابن العم ... سوف أعينك على هذا المجرم الأثيم !)

وأمسك بيديه المرتعشتين كرسياً كان في الغرفة ، ورفعه إلى صدره كدرع يحتمي بها ، واقبل نحونا . فملأتني حركته أملاً ورجاء ولا سيما أنى كنت قد جرحت في ذراعي فصحت به :

ــ (تعال .. تعال ... ارم المجرم بهذا الكرسي بين ساقيه .)

وأراد «ريتشارد» أن يتفادى الكرسي ، فوثب إلى الملك وكان له

ضربة مميتة فتجنبها الملك بتلك الدرع ولكن ذبابة السيف كانت قد أصابته في جبينه فسقط إلى الأرض مغشياً عليه . واستدار «ريتشارد» ليجهز عليّ فشاء سوء حظه أن تتزحلق قدمه ببركة الدماء التي سالت من جسم الطبيب المسكين فتعثّر ، ولم يكد ينهض حتى أغمدت سيفي في صدره فانكبّ على جثة ضحيته جسداً بلا روح ...

فرغت من هذا الخصم العنيد ، وهُرعت إلى الملك أجس نبضه، فسرني أنه على قيد الحياة ، ولكن شُغلت عنه في تلك اللحظة بما سمعته من أصوات سلاسل تعجّ في الخارج ، فعرفت أن أحداً من الناس قد أنزل الجسر المتحرك ، فأيقنت أن الدائرة ستدور عليّ وعلى الملك ما لم يكن منزل الجسر أحد رجالنا ، فاضطُررت أن أدع الملك لعناية الله وخرجت أستوضح الأمر ، فمررت بغرفة الحارسين فوجدت على الموقد مسدسين محشوّين كانت المباغتة ولا شك قد حالت دونهما لما هبطت على الحارسين، فأخذت واحداً منهما وصعدت في السلّم الحجري بعد أن توقفت قليلاً لأنصت إلى ما يجرى في الخارج ، ولأضمد جرح ذراعي بقطعة مزقتّها من قميصي .

وما كدت أبلغ ناصية السلّم الحجري ، وأقف وراء الباب أتسمّع حتى اضطربت اضطراباً شديداً ، فقد سمعت صوت «روبرت» يقهقه ضاحكاً . يا لهذا الشيطان الرجيم ! إن ضحكه دليل على أن «سبت» ورجاله لم يصلوا والا كانوا قضوا على هذا المجرم الجرئ ...

ودقّت ساعة البرج النصف بعد الثانية ... نعم النصف بعد الثانية ومعنى هذا أن رجالنا جاؤوا في الموعد فوجدوا الباب مقفلاً ، ثم بحثوا عنى في ضفة الخندق فما وجدوني فعادوا إلى المارشال يعلنون نبأ موتى وموت الملك .

وبينما أنا واقف وراء الباب أستريح وأستعيد قواي ، سمعت ذلك الشيطان يصيح ساخراً متهكماً :

ــ (الآن وقد أنزل الجسر أيها الدوق الأسود فتعالَ دافع عنك وعنها... ألا تستحق هذه السيدة أن تدافع عنها ؟ دع خدمك الأسافل وتقدّم أنت ... ها . ها . ها. ها .)

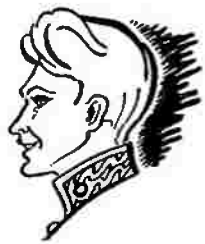

١٧

دفعني الفضول إلى أن ألقى نظرة إلى الميدان رجاء أن أشترك في القتال الذي سيدور بين «روبرت» والدوق الأسود وآخذ بثأري من الغالب ، ففتحت الباب بلطف ولكني لم أتبين شيئاً ، فأضواء المشاعل المنبعثة من الطرف الثاني من الجسر كادت تعمى ناظريّ بعد الظلمة التي كنت فيها، ثم ما لبثتْ عيناى أن تعوَّدَتا الضياء فأبصرت رهطاً من خدم الدوق ، بين حامل مِشْعَل وحامل رمح ، قد تجمّعوا في الناحية الثانية وهم ينظرون نظرة تحدٍّ وخوف معاً إلى رجل واقف في وسط الجسر وسيفه مجرّد في يده وكان «روبرت» ...

وكان كلما خطا خطوة فوق الجسر إلى ناحية القوم ، تراجع هؤلاء خطوات فيضحك ويصيح مزهوًّا :

ــ («ميكل» أيها الكلب القذِر ! تعال إذا كنت تستطيع الوقوف على قدميك !) وطفق يكرر هذا حتى أجابه صوت امرأة يقول :

ــ (لقد مات ! آه يا الهي لقد مات !) فلما سمع «روبرت» هذا الجواب صاح في الخدم صيحة الفوز والانتصار :

ــ (لقد مات ! اخفضوا سلاحكم فأنا اليوم سيّد القصر !)

وكم وددت في تلك الساعة لو بعثت ذلك الشيطان إلى الجحيم برصاصة واحدة من المسدس الذي في يدي ، فأنقذ الخدم وأنقذ الدنيا من شروره وآثامه ، ولكن قوة خفية كانت تُمسك يدي . وزاد عليها ما سمعته في تلك اللحظة من جَلَبَة بعيدة وصياح ودويّ ، وما رأيته بأمّ عيني . فقد اتجهت جميع الأنظار إلى سيدة مقبلة إلى الجسر ، وهى تترنّح من الاضطراب ، وفى يدها مسدس أطلقت رصاصة على «روبرت» فلم تصبه فقال لها :

ــ (لو لم تكن عيناك يا سيّدتي أقتلَ من رصاصك لما كنتُ الساعة في هذا الموقف الحرج ، ولما كان الدوق الأسود الآن في غياهب الجحيم !) فلم تحفِل بكلامه ، وتغلبت على اضطرابها ، وصوّبت إليه المسدس ، فكان على «روبرت» إمّا أن يهجم عليها وإمّا أن يتراجع إلى الخلف فيتلقّاه

رصاص مسدّسي . غير أنه لم يفعل هذا ولا ذاك ، فقبل أن تُحكم «مدام دي موبان» تصويب مسدسها إليه ، انحنى أمامها وقال لها بلهجة كلها إجلال وتوقير :

ــ (محال يا سيّدتي أن أقتل من أحببت !)

ثم قفز بأسرع من البرق إلى حاجز الجسر ، ووثب منه إلى الماء قبل أن تفكّر السيدة أو أفكّر أنا في الحيلولة دون ما يريد ، ولم ينتشلني من ذهولي غير سماعي صوت «سبت» في تلك الثانية يصيح قائلاً :

ــ (انه الدوق ... لقد فارق الحياة !)

قرّرت عندئذ فيما بيني وبين نفسي أن مهمتي قد انتهت ، وان الملك لم يعد في حاجة إلىّ ، فالدوق قد مات ، و «سبت» ورجاله اقبلوا يحتلّون القصر ، وليس من يعارضهم فيه أو يقاتلهم ، فعمّا قليل ينقذون الملك ويعيدونه إلى عرشه وبلاده ، فلم أجد خيراً من أن أنفر ممن مخبئ ، وأجرى إلى وسط الجسر ،وأثب منه إلى الماء في أثر «روبرت» بعد أن رميت المسدس الذي كان معي واستبقيت السيف .

كان «روبرت» قد سبقني ببضعة أمتار ، وكان يسَبح بقوة وسرعة ، في حين كنت أسبح ببطء بسبب قواي الخائرة وذراعي المجروحة ، فتقدّمني ولم يعرف مَنْ يتعقبّه ، ورأيته عن بُعد يحرك رأسه يميناً وشمالاً كأنه يبحث عن مكان يقف فيه ليستطلع شأن السابح وراءه ، وكنت أدعو

الله أن لا يرى في طريقة الحبل الذي كنت ربطته بجذع شجرة على ضفة الخندق وهبطت منه إلى الماء ، ولكن ما من شئ يفوت ذلك الشيطان فرآه وسارع إليه وسمعته يقول مسروراً : (أي إبليس وضع هذا الحبل هنا؟!) ثم تسلّقه بخفّة الأرانب ، ومضى يتوغّل في الغابة مؤثراً الفِرار على البقاء .

وصلت أنا إلى الحبل فتسلّقته ، ولما أصبحت على الأرض اليابسة لمحت خياله بين أغصان الشجر ، فأخذت أناديه وأنذره بالوقوف ، فالتفت وراءه وعرفني ولوّح لي بيده مستهزئاً كعادته ، وأمعن في الجري حتى غاب عن نظري ، فارتميت إلى الأرض ألهَث من التعب وأستعد قواي، فما كدت أصيب شيئاً من الراحة حتى استفزّني صياح فتاة ، فجريت صوب مصدر الصوت فرأيت «روبرت» قد لقي فتاة من القرويات راكبة جواداً ومعها سلّة من الثمار كانت لا شك ذاهبة بها لبيعها في السوق، فأنزلها من الجواد برفق ولين وأدب ، ومنحها قبضة من النقود ثم قفز إلى السرج فاستوى عليه ومكث ينتظرني والسيف مسلول في يده ، فلما أصبحت منه على بضعة أمتار قال لي :

ــ (ماذا فعلت في القصر ؟) فقلت :

ــ (قتلت ثلاثة من صحابك !) فقال :

ــ (أدخلت إلى سجن الملك ؟) فقلت :

ـ (نعم .) فقال :

ـ (والملك ؟) فقلت :

ـ (لقد جرحه «ريتشارد» قبل أن أستطيع قتل ذلك الأثيم ، وأرجو أن لا يكون الجرح ذا بال وأن يعيش الملك .) فقال :

ـ (يا لك من أحمق !) فقلتُ :

ـ (وفعلتُ غير هذا ...) فقال :

ـ (ماذا ؟) فقلت :

ـ (حقنت دمك ، فقد كان في امكانى أن أقتلك كما يُقتل الكلب الأجرب ... كنت وراءك على الجسر والمسدس في يدي عندما أخطأتك «مدام دي موبان» فقال ضاحكاً :

ـ (إذن كنت أنا بين ناريين !) فقلت :

ـ (ترجل الآن وقاتل كما يقاتل الرجال .) فقال وقد أشار إلى الفتاة القروية :

ـ (أمام الجنس اللطيف يا صاحب الجلالة !)

فاستولت عليّ سورة من الغضب ، فهجمت عليه ثائراً هائجاً وكلْتُ له ضربة شديدة تفاداها بسيفه ، فلما رآني جاداً في قتاله هجم عليّ بجواده وعلاني بالسيف ، فتحاشيت ضربته ببراعة لا أدرى من أين

هبطت عليّ ، وعالجته بضربته في خدّه ولكن تعثّرتُ بعدها فسقطت راكعاً على ركبتي ، وتوقّعت أن يجهز عليّ قبل أن أستطيع النهوض . فحال دون ما توقّعت صوت يدوّى وراءنا ، فالتفتنا كلانا إلى مصدر الصوت ، فرأيت فارساً ينتهب الأرض انتهاباً إلينا وتبيّنته فإذا هو صديقي «فرتز» فما كان من «روبرت» إلا أن أدار جواده وطار به وراء الأغصان والأشجار ولم ينس أن يودعني قائلاً :

ــ (استودعك الله يا «رو دلف راسنديل» والى اللقاء !)

وكذلك حيّا الفتاة تحية جميلة وكانت واقفة ترتجف وترتعش ، وحيّا «فرتز» بقبضة يده وكان قد اقترب قليلاً منا فـرد «فرتز» على التحية بطلقة من مسدسه فأصابت سيفه المسلول فرماه من يده وهو يسبّ ويلعن ويمسح الدم المتدفّق من خدّه .

أومأت إلى «فرتز» باللحاق به ، غير أنه وقف جواده وترّجل وسارع إلىّ نهضنى ويمسح الدماء التي عادت تتدفق من ذراعي فقلت له :

ــ (أهذا أنت يا عزيزي «فرتز» ؟ والملك ؟ أهو على قيد الحياة ؟) فأهوى عليّ يقبّلني ويقول :

ــ (نعم انه على قيد الحياة والفضل في هذا يعود إلى إخلاصك ومروءتك وشجاعتك !)

هزّني هذا الخبر المفرح هزاً عنيفاً ، فهتفت بكل قواي : (مرحى ! مرحى ! تباركت يا ربّ !) ثم تغلّب عليّ الضّعف والخوَر والبرد فوقعت بين ذراعي «فرتز» لا أعي حَراكاً ...

١٨

وقف القارئ على ما قمت به من أعمال في تلك الليلة التي كان فيها قصر «زندا» مسرحاً للحوادث ، ويهمّه ولا شك أن يعرف كيف تسلسلت تلك الحوادث في الجوانب الأخرى من القصر ، فها أنا ذا أسوق إليه ما حدّثني به «فرتز» و «مدام دي موبان» .

لقد كان في قلب هذه السيدة عاطفة صادقة نحو الدوق الأسود، وكانت تعلّل النفس أن تقترن به في يوم من الأيام ، ولذلك لحقت به إلى «روريتانيا» فبدا لها أن الرجل الذي آثرته بالحب والإجلال رجل فظّ غليظ ، لا يتورّع عن ارتكاب الموبقات في سبيل أطماعه .

وكان من تلك الأطماع أن يتزوّج بالأميرة «فلافيا» ليجلس على عرش «روريتانيا» بعد أن يتخلّص من الملك الشرعي بوسيلة من الوسائل .

هال هذه السيدة ما لمسته في حبيبها من رغبات آثمة ، فدفعتها سريرتها الصافية مع شدّة حبها له أن لا تشاركه في تحقيق تلك المطامع ، ولا في قتل الأبرياء ، فجازفت بتنبيهي إلى الخطر مرّة ، وبتنبيه الأميرة مرّة أخرى ، على أمل أن تتوسّل إلى الملك فيما بعد ليعفو عن الدوق أو ليَهبَ له الحياة .

ولما تبعَت الدوق إلى قصر «زندا» ازدادت حياتها ارتباكاً بغرام «روبرت» بها ، وعرضه عليها الزواج والهرب معاً إلى بلاد بعيدة ، فضاقت ذرعاً بتلك المشاكل ، واستعانت بي على إنقاذها من ذلك الجحيم ، وقررت أن تنفّذ ما طلبته منها في تلك الكلمة التي بعثت بها إليها مع «حنا» ولكن القدر تعجّل في الزمن ، فسارت الأمور على غير ما رتّبت ودبّرت .

فوجئتْ «مدام دي موبان» بعد انصراف «روبرت» ثم انصراف الدوق في تلك الليلة ، وتراشقهما بالكلام في حضرتها ، بأن ترى «روبرت» يعود إليها وفى نيّته أن يخطَفهَا ويسير بها ، فاضطرّت إلى الاستغاثة فهُرع الدوق إلى نجدتها ، فعلاه «روبرت» بالسيف وجندله صريعاً ثم فرَّ من النافذة لما رأى نفسه محاطاً برجال الدوق وهو لا يعلم أقتل سيده أم لا تزال فيه بقية من روح ، ولو انتظر قليلاً لرأى سيده يجود بنفَسه

الأخير بين ذراعي «مدام دي موبان» . وما عتّمت هذه أن رأته بعد قليل واقفاً في وسط الجسر يهدّد رجال الدوق ويتوعّدهم ويهزأ بهم ، فهبّت إلى مسدّسها، وخرجت من حجرتها تريد أن تثأر للدوق من قاتله ..

أمّا أصحابي فكانوا قد وصلوا إلى القصر في الموعد الذي حدّدتُه لهم ، وانتظروا عند الباب طويلاً يتوقّعون أن يفتح «حنا» لهم الباب بين لحظة وأخرى ، ولكن «حنا» كان مشغولاً بتضميد جراحه التي وسمه بها سيف «روبرت» فمنعته من تنفيذ الخُطة المتّفق عليها .

وبقى أصحابي ينتظرون حتى دقّت الساعة النصف بعد الثانية ، فذهب «فرتز» يبحث عنى عند ضفاف الخندق فما وجد لي أثراً ، فعاد إلى «سبت» واتفقنا على أن يرسلا إلى المارشال يدعوانه أن يلحق بهم في أكبر قوة ممكنة ، وعمدا هما ومن معهما من رجال إلى تحطيم الباب فتحطم بعد قليل ، ودخلوا الحصن وبرزوا عند الجسر عندما كانت «مدام دي موبان» تهمّ بإطلاق النار على «روبرت» .

واندفع «سبت» و «فرتز» بعد ذلك إلى سجن الملك ، وكان أخشى ما يخشيانه بعد إذ تحقّقا من موت الدوق الأسود ، أن يكون حراس الملك قد قضوا عليه ورموه في الأنبوبة إلى قعر الخندق ، فلما مرّا بجثة الفرنسي «دي جوتل» ثم بجثة البلجيكي «برسونان» في الغرفة الملاصقة لسجن الملك ، قوى فيهما الأمل بأن يكون الملك حيًّا يُرْزق ولا سيما أن «مدام دي موبان» كانت قد ذكرت لهما أنها رأتني أقفز إلى الماء وراء «روبرت»

فدخلا إلى غرفة الملك مسرعين ، فوجدا جثة «ريتشارد» وجثة الطبيب منطرحتين إلى الأرض ، ورأيا الملك ممدّداً في زاوية من الزوايا والى جانبه كرسي مقلوب ، فخفّ إليه «سبت» وجسّ نبضه ثم صاح متهـلّل الوجه قائلاً :

ــ (انه على قيد الحياة !)

فأشرقت قسمات «فرتز» وتعاون الرجلان الوفيّان على نقل الملك إلى غرفة الدوق ، وشاركتهما «مدام دي موبان» في العناية بالملك حتى يحضر الطبيب الذي استدعياه .

وقرّ قرار الرجلين الأمينين أن تبقى قصة الملك سراً دفيناً ، فأخذا على «مدام دي موبان» والحارس «حنا» العهود والمواثيق على أن يكتما الأمر ولا يبوحا به لأحد ، فاقسما على ذلك . ثم كان لا بدّ أن يجدا تعليلاً لوجود الملك جريحاً في قصر «زندا» ، فأذاعا أن الدوق كان قد أسر صديقاً من أصدقاء الملك بَغيْاً وظلماً ، فأراد الملك أن يقنع أخاه الدوق بإطلاق سراح الأسير ، فذهب إليه ليلة أمس ولكن الدوق وحراس الأسير اعترضوا سبيله وقابلوه بالسلاح فقاتلهم حتى تغلّب عليهم ، ولكن أصيب في أثناء المعركة ببعض الخدوش والجراح . أما الأسير فقد اختفى ورآه خدم الدوق يلقى بنفسه في ماء الخندق ، فمن وجده فعليه أن يمضى به إلى الملك ولا يتركه يتصل بأحد من الناس .

لقيت تلك الرواية الملفّقة آذاناً صاغية وقلوباً طيّبة فصدّقها ،

وأكبر الناس مروءة الملك وشجاعته ، وكان «سبت» عندما تحقّق من نجاة الملك ، قد بعث إلى الأميرة يخبرها أن الملك في أمان ، ويرجوها أن لا تغادر المنزل حتى تصل إليها أوامر ابن عمها الملك ، فما حفلت الأميرة بالمنع ، وكيف تقيم في المنزل وخطيبها جريح في قلعة «زندا» ؟ فأمرت بمركبتها فركبتها ولحقت بالمارشال الذي كان يجدّ هو وجنده في السير إلى «زندا» فاخترق الموكب شوارع المدينة ، وكان السكان قد بلغتهم الرواية إلى لفّقها «سبت» و «فرتز» فأنفوا من خيانة الدوق وأثنوا على شجاعة الملك .

وكان «فرتز» بعد أن رتّب هو و«سبت» ما شاءا أن يرتبا ، ترك لصديقه تدبير الأمور ، وذهب يبحث غنى حتى لقيني ويكاد «روبرت» يجهز عليّ ، ففي اللحظة التي اقترب فيها موكب الأميرة والمارشال إلى التل المشرف على قلعة «زندا» كنت قد ثاب إليّ رشدي ، ونهضت أسير متوكئاً على ذراع «فرتز» فلمحت الموكب وقرأت في عيني «فرتز» أن الواجب يقضى عليّ بالابتعاد من طريق الأميرة ، فأذعنت لرغبته الصامتة وارتميت أستريح عند جذع بعض الأشجار .

وتشاء الأقدار أن تلحق بنا تلك الفتاة القروية التي استولى «روبرت» على جوادها فترى موكب الأميرة فتسارع إليها وتقول لها :

ــ (مولاتى ! إن الملك هنا في الغابة ... هل ترغبين في أن أقودك إليه ؟) فقال المارشال :

ـ (ما هذا الهُراء يا فتاتي ؟ إن الملك جريح في قصر «زندا» فقالت الفتاة :

ـ (نعم انه جريح ولكنه هنا مع أحد الضباط .) فقالت الأميرة :

ـ (كيف يمكن أن يكون الملك في مكانين معاً ؟!) فقالت الفتاة :

ـ (رأيته يتعقّب رجلاً ويبارزه حتى حضر الضابط الذي معه ، والدليل على ذلك أن السيد الذي بارزه قد أخذ منى جوادي وهرب به ... أقسم لك يا مولاتى أن الملك هنا ...)

وكان «سبت» قد وصل في تلك الأثناء إلى حيث كانت الأميرة ، فقد غادر القصر ليكون في استقبال المارشال وينهى إليه بروايته ، فحيّا الأميرة وهتف فرحاً مغتبطاً :

ـ (الملك يا مولاتى في خير وهو بعيد من كل خطر !) فقالت الأميرة :

ـ (وأين هو ؟) فقال :

ـ (في القصر يا مولاتى ... فأين تريدينه أن يكون ؟ فقالت الأميرة:

ـ (تزعُم هذه الفتاة أنه هنا في الغابة .) فقال «سبت» ضاحكاً :

ـ (كل فتى وسيم هو الملك في عرف الفتيات !) فقالت الفتاة :

ـ (أؤكد لك يا مولاتى أن الرجل الذي رأيته يشبه الملك كل الشبه !) فحار «سبت» في أمره ، وبدت على وجه المارشال علامات التعجب والتساؤل ، ولعبت الظنون بفؤاد الأميرة فقالت وهى تنزل من المركبة :

ـ (سأذهب أتحقّق من الأمر ! ...)

فتضرّع إليها «سبت» أن تصحبه وحدها إلى حيث تريد ، فما وسع الأميرة إلا أن تلبى رغبة «سبت» لما قرأته في عينيه من معاني التضرّع والتوسّل ، فرجت من المارشال أن ينتظرها قليلاً هو ورجاله ريثما تعود.

ومشت الأميرة و «سبت» إلينا تقودهما الفتاة القروية حتى إذا اقتربوا منا أمر «سبت» الفتاة بالانصراف فانصرفت ، فلما رأيتهما مقبلين إلينا أخفيت وجهي بين راحتي ، وأعوزتني الشجاعة في أن أتطلّع إلى الأميرة، فلم تكد تراني حتى صاحت : هو . هو . ثم خفّت إلىّ وركعت بجانبي وهى تقول :

ـ (أجريح أنت يا «رودلف» ؟)

لم أجب عن ذلك السؤال ، ولا تطلّعت إلى صاحبة ذلك الصوت الرخيم الذي انحدرت نبراته إلى قلبي فأشاعت فيه موجة من الخجل والأسى.

لقد رمتني الأقدار في طريق هذه الأميرة الجميلة فأحببتها وأحبّتني، ثم شاءت تلك الأقدار أن تنتزعني منها وتنتزعها منى فكيف أقوى على أن أصارحها بالحقيقة الأليمة ؟ ومن يضمن لي أن لا أصغر في عينيها وأن لا تحتقرني إذا ما علمتْ حقيقة حالي وظنّت أنى كنت أتلاعب بفؤادها النبيل.

خطرت على ذهني هذه الخواطر ، ووثقت أنى مفارق بعد قليل هذه

الجنّة التي سعدت فيها ردحاً من الزمن على ما كان يحيط بي من أخطار وأهوال .

وكأنما الأميرة استبطأت الرد على سؤلها فقالت تخاطب «سبت» في شئ من الحنق :

ــ (قل لي يا كولونيل : ما معنى هذا المُزاح ؟ لماذا يخفى الملك وجهه بين راحتيه ولا يريد أن يكلمني ؟) فقال لها «سبت» بصوت يبدو الألم في نبراته :

ــ (مولاتى عذراً فما الرجل بالملك !) فتراجعت خطوة وقالت :

ــ (أتحسبني لا أميز الرجل الذي أحببته ؟ !)

فوجم «سبت» وفاضت الدموع من عيني «فرتز» وتجلت الحقيقة لخاطر الأميرة فكذبت مع ذلك حَدسْهَا وقالت :

ــ (لا يمكن أن أُخدع فقلبي يحدّثني أنه الرجل الذي أحببته !) فقال «سبت» :

ــ (قد يكون الحبيب الذي شرّفتِه وأسعدتِه بحبك ولكنه ليس الملك ! فالملك في قصر «زندا» وما هذا السيد إلا ...) فقاطعته الأميرة وأقبلت علىّ تزيح رأسي عن راحتي وتقول لي :

ــ (لماذا تسمح لهما يا «رودلف» بتعذيبي ؟ لماذا تريد أن تنكر نفسك؟)

فتأمّلتها طويلاً وشخصتُ إليها كئيباً حزيناً وقلت :

ــ (عفوك وغفرانك يا مولاتى فما أنا بالملك !)

فحملقت فيّ وتطاير شرر الغضب والاحتقار في عينيها الجملتين ثم اضمحلّت تلك النظرة القاسية وأعقبتها نظرات وادعة حالة تنبئ عن الشك الذي ساورها ، وما زالت تنقّل فينا نحن الثلاثة نظراتها المنبعثة من فؤاد قريح معذّب حتى ارتمت بين ذراعيّ فاقدة الرشد . فأشار إليّ «سبت» إشارة فهمت معناها ، فنهضت وأضجعتها على العشب ، ونظرت إليها نظرة الوداع الأخير , وابتعدت وأنا ممزّق الفؤاد, ثائر على الأقدام التي لم تسمح لسيف «روبرت» أن ينقذني من هذا العذاب الأليم ...

١٩

قضيت نهاري مختبئاً في الغابات ، وصحبني «فرتز» في مخبئ تاركاً الأميرة لعناية «سبت» . فلما هبط الظلام ذهبت إلى قصر «زندا» فواراني «حنا» في الغرفة التي قضى فيها الملك مدة أسره ، وعلمت منه أن الملك يتماثل للشفاء ، وأنه قابل الأميرة وتحدّث طويلاً مع «سبت» و «فرتز» وأن المارشال في طريقه إلى العاصمة .

وبينما أنا وحدي أستعرض ما مرّ بي من حوادث ، إذ دخل عليّ «فرتز» وأنهى إليّ أن الملك يرغب في رؤيتي ومحادثتي ، فذهبنا إليه وكان مستلقياً إلى السرير في غرفة الدوق الأسود ، فلما اقتربت منه أمسك بيدي

وشدّ عليها وقال بصوت ضعيف :

ــ (ما زلتُ خائر القوى لا أقوى على الكلام ، ولا سيما أنى تحدّثت طويلاً مع «سبت» والمارشال وقد بُحنْا له بكل شئ ... أودّ أن أصحبك معي إلى العاصمة ، وأن أستبقيك في قصري ، وأعلن على رؤوس الأشهاد ماذا فعلت من أجلى يا ابن عمى العزيز ، ولكن رجالي الأمناء الأوفياء ينصحوني بغير هذا كتماً للسر ...) فقلت :

ــ (إنهم على حق يا مولاي .... فاسمح لي صاحب الجلالة بالرحيل فما عاد لي عمل في هذه البلاد ! ....) فقال وقد ثقل رأسه فأسنده إلى المخدّة :

ــ (ومتى أراك ؟) فقلت وقد انحنيت أقبّل يده :

ــ (عندما يشرفني الملك بخدمة أؤدّيها له !)

وأخذ النُّعاس بأجفان الملك فأغمض عينيه ، فخرجت أنا و «فرتز» من الغرفة ولم أر الملك بعد ذلك قط .

ولما اجتزنا الباب تأبط «فرتز» ذراعي ولم يصحبني إلى الغرفة التي كنت فيها ، بل قادني عَبـْر الممرّات والأروقة إلى حيث لا أعلم ، فسألته مستفسراً فقال دون أن يجسر على النظر إلىّ :

ــ (إنها تريد أن تراك ، فإذا انتهت المقابلة بينكما فالحق بي إلى مدخل الجسر فإني منتظرك هناك !) فسألته :

ـ (هل عرفتْ كل شئ ؟) فقال :

ـ (كلّ شئ !)

وكنا وصلنا إلى باب فخم ففتحه ودفعني برفق إلى داخله ثم أقفله ، فوجدتني في حجرة أنيقة وقفت فيها الأميرة قريباً من النافذة ، فمشيت إليها ووضعت إحدى ركبتيّ على الأرض ، وأخذت إحدى يديها المتدلية إلى جنبها فرفعتها إلى شفتيّ فلم تتحرك ولا فتحت فاها بحرف، فاستويت واقفاً وتطلعت إلى وجهها الشاحب ينعكس عليه لمعان شعرها الذهبي فلم أستطع إلا أن أهتف بها قائلاً :

ـ («فلافيا» !)

فاضطربت عند سَمَاعها اسمَها ، وشملتني بنظرة كلها حب وحنان وقالت :

ـ (اجلس على هذا المقعد فأنت جريح .)

وقادتني من يدي إلى مقعد قريب منها فأجلستني عليه ثم انحنت عليّ وأمرّت أناملها على جبيني وقالت :

ـ (إن جبينك يتـّقد بالحمّى يا صديقي !)

فلزمت الصمت خجلاً من حسن استقبالها بعد أن كنت قد حسبت لمقابلتها ألف حساب ، ووطّنت النفس على أن أنطرح عند قدميها متوسلاً معتذراً ، فتابعت حديثها وقالت :

ـ (إن الشرف يدعوني أن أكون وفيّة لبلادي وأسرتي ، ولست أدرى لماذا سمح الله بأن أحبك ، ولكني أدرى أن الواجب يحدوني على البقاء في هذه البلاد ... فأرحل على بركة الله ، واعلم أنى باقية على حبك ما حييت !)

فنهضت وقلت :

ـ (ليحرسك الله أيتها الحبيبة !)

وانكببت على يدها أقبّلها ، ثم ودّعتها وخرجت مسرعاً إلى لقاء «فرتز» عند مدخل الجسر فكان هناك «سبت» أيضاً ينتظرني ، فأدخلاني إلى غرفة غيّرت فيها ملابسي ثم صحباني إلى محطة السكة الحديد على حدود «روريتانيا» فبلغناها عند الفجر . وكان القطار قد أقبل يتهادى ويطلق في الفضاء دخانه الأزرق ، فودّعتهما وكان كل منا يحبس دموعه في مآقيه ويمسك قلبه خوف أن يتصدّع . وقبل أن أصعد إلى مركبة القطار، حسر «فرتز» رأسه وانحنى أمامي كما كان تعوّد أن يفعل عندما كنت صاحب الجلالة وهم بتقبيل يدي ، فلما سحبتها منه ضحك وقال :

ـ (إن الأقدار تخطئ أحياناً فلا تَهَب المُلْك أحقَّ الناس بالمُلْك)

ففتل «سبت» شاربه بيده اليسرى وضمني إليه باليمنى وقال :

ـ (إن الشيطان على هذه الأرض لا يتخلى عن أهوائه ومطامعه !)

وبدأ القطار يتحرّك فقبّلتهما وقبّلاني ، والناس ينظرون إلينا ويدفعهم

الفضول إلى معرفة هذا المسافر الذي يودعانه بمثل تلك الحرارة والمحبة ، وأنّى لهم أن يعرفوني بعد أن كنت أحطت وجهي بلثام كثيف .

صعدت إلى المركبة وجريت إلى النافذة لأتملّى منهما بالنظرة الأخيرة، وسار بي القطار وأنا ألوّح لهما بيدي ، وهما يلوّحان لي بأيديهما حتى غاب القطار عن الأنظار ...

٢٠

غادرت «روريتانيا» مسلوب اللّب والفؤاد ، وحططت الرحال في بلاد «التيرول» فقضيت فيها أسبوعين مُخْلِداً إلى الراحة والاستجمام .

وكنت عند وصولي إليها قد أرسلت إلى شقيقي بطاقة أخبره فيها أنى متمتّع بصحة جيدة ، وأنى عائد إلى الوطن بعد أيام قلائل . فهدّأت تلك البطاقة من رَوْع أهلي وأصدقائي ، وسكّنت جأش سفيرنا في «روريتانيا» ورئيس الشرطة في عاصمتها .

عدت إلى شاربي فأطلقتهما كما أطلقت لحيتي فرجعت كما كنت ، ومررت في طريق العودة بباريس فقابلت فيها سفيرنا ، وساءني أن أخترع

له الأكاذيب فكان يهزّ برأسه ويقول لي انه ما شك قط في أنى لحقت «بمدام دي موبان» إلى عاصمة «روريتانيا» .

ولقد أخبرني أن «مدام دي موبان» قد عادت إلى باريس ، وأنها تحيا فيها حياة العزلة والانفراد حزناً على الدوق «ميكل» الذي كانت تحبه وأن أخبار الدوق وخيانته قد ذاعت وشاعت في جميع الأقطار .

وفى أثناء إقامتي بباريس لم أجرؤ على زيارة «مدام دي موبان» فكتبت إليها رسالة أحيّيها فيها وأستطلع أنباءها ، فورد لي منها جواب تشكرني فيه على تحيّتي وعاطفتي الصادقة نحوها ، وتخبرني أنها تزمع الانقطاع عن العالم في بيت لها بالريف ، ولست أدرى أنفّذت عزمها أم لا فقد انقطعت عنى أخبارها بعد ذلك .

وبقى علىّ أن أخوض معركة سأمْنَى فيها بخسارة محقّقة . ألَمْ أعد زوجة شقيقي بتأليف كتاب عن بلاد «التيرول» ؟ فكيف أولف هذا الكتاب وأنا لا أعلم شيئاً عن «التيرول» ولا دوّنت عنها خبراً من الأخبار؟. ولما عدت إلى لندن استقبلني أخي وزوجته بالترحاب ممزوجاً بقسط كبير من العتاب ,وللقارئ أن يتصوَّر مبلغ انتصار زوجته عليه عندما أيقنتْ أنى لم أؤلف ذلك الكتاب الموعود , فما زلت في نظرها فتى لا يصلح لشئ ولا يُحسن عملاً ولكنها تُعلّل النفس بأن أكون أهلاً للمنصب الجديد الذي سأتقلّده فسألتها مستغرباً :

ـ (أي منصب يا عزيزتي «روز» ؟) فضحكت وقالت :

ـ (أتراك نسيت ؟ ألم أخبرك قبل أن تسافر أن صديقنا «السير يعقوب بور ودال» سيعيّن سفيراً ، وأنه اختارك ملحقاً في سفارته ، وها هو ذا يوشك أن يعيـَّن فاستعدَّ للرحيل معه .) فسألتها :

ـ (في أي بلد عيـَّن أو سيعيّن سفيراً ؟) فقالت :

ـ (سيحل محل اللورد «ثوفام» في «ستر لسو» عاصمة «روريتانيا» إنها أجمل عاصمة في باريس .)

فكدت أقفِز من مقعدي عند سَماعي هذا النبأ ولكني تجلـّدت وقلت :

ـ (ما أحسبني أقبل هذا المنصب !) فصاحت زوجة أخي:

ـ (لقد خيـّبت ظني يا «رو دلف» فحتّامَ تبقى فريسة الفراغ والبطالة ؟ فقلت :

ـ (على رِسْلك يا عزيزتي ! أتستحسنين أن أذهب إلى بلاد يثير وجودي فيها وظهوري في بـَلاط ملكها تذكارات قديمة ؟...)

وأخرجت من جيبي صورة للملك «رو دلف» الخامس ملك «روريتانيا» وقدّمتها إليها وقلت لها : (انظري) فتناولت منى الصورة وما لبثت أن صاحت :

ـ (آه يا الهي ! ما هذا الشبه النادر !)

ثم وضعَت الصورة على المنضدة فقلت لأخي :

ـ (وما رأيك أنت يا «روبرت» ؟)

فنهض وذهب إلى أقصى الحجرة وعاد منها بمجلة مصورة كبيرة الحجم ، نُشر فيها كثير من الصور عن تتويج «رو دلف» الخامس ملك «روريتانيا» ومنها صورة كبيرة للملك في طيلسان التتويج ، فوضع هذه الصورة إلى جانب تلك على المنضدة وأخذت أنظارنا تحدّق اليهما ونقابل بينهما .

أما أنا فكنت أنقل نظري في المجلة من صورتي إلى صورة «سبت» ومن صورة المارشال ببزّته الرسمية إلى صورة الكاردينال بحلته الأرجوانية ، ومن وجه الدوق الأسود إلى وجه الأميرة «فلافيا» وأنا في شبه غيبوبة كأني أستعيد ذكريات حلم من الأحلام . فصحوت من تلك الغفوة اللذيذة عندما وضع أخي يده على كتفي وأخذ يحدّق إليّ بنظرات تحجب وراءها السؤال والشك والاستفهام فقلت :

ـ (الشبه غريب جدًّا فمن الخير أن لا أذهب إلى «روريتانيا» فشعرت زوجة أخي بشئ من خيبة الظن فقالت متبرّمة :

ـ (الحقيقة أنك لا تريد أن تقوم بعمل من الأعمال ... من يدرى فلعلك تصبح سفيراً في يومٍ من الأيام)

فتبسّمتُ وقلت في نفسي : أأصبح سفيراً بعد أن كنت ملكاً ! ونهضت زوجة أخي إلى بعض شأنها وهى عابسة ، وعاود أخي النظر إليّ

مستفهماً متسائلاً ثم قال :

ــ (هذه الصورة في المجلة ...) فقاطعته قائلاً :

ــ (دليل على أن ملك «روريتانيا» وخادمك المطيع يتشابهان كقطرتين من قطرات الماء.) فهز أخي رأسه وقال :

ــ (أستطيع أن أجزم أن الصورة التي أخرجتها من جيبك لملك «روريتانيا» ليست صورتك ، كما أستطيع أن أجزم ، ولست أدرى السبب، أن بين تلك الصورة وصورة المجلة اختلافاً ولكني أجهل جوهرة فصورة المجلة أشبه بك من تلك .)

كنت أودّ أن أطلع أخي على ما جرى لي في تلك البلاد فاني أعرفه رجلاً رزيناً حرياً أن يستودع أعظم الأسرار ، ولكن السرّ المبّيت بين ضلوعي لم يكن ملكي فكتمته عنه على مضض وقلت :

ــ (كيفما كان الأمر فلا أرغب في الذهاب إلى عاصمة «روريتانيا») فقال:

ــ (أتت على حق فيجب أن لا تذهب !)

ما الذي حمل آخى على أن يرى رأيي في تخلفي عن الذهاب إلى «روريتانيا» ؛ أتراه تراوده بعض الشكوك أم تراه واقفاً على طرف من الحقيقة؟

أسئلة لم أستطع الجواب عنها فضربت عنها صفحاً .

واختار السفير ملحقاً سواي ، وذهبت أنا إلى الريف أعيش فيه بعيداً عن الناس لا أزور ولا أزار ، منتظراً فرصة سانحة تدفعني إلى أن أقوم بعمل نافع مفيد في سبيل نفسي وفى سبيل المجتمع والوطن .

وكثيراً ما تمشيت في ظلال الغابات أو على ضفاف الجداول والأنهار، فسرح بي الخاطر لا إلى المستقبَل وأحلامه ، بل الماضي وحوادثه ، فتذكرت تلك الليلة الأولى التي قضيتها مع الملك ثم المعركة التي خضتها بتلك المنضدة الحديدية ,ثم الليلة التي قضيتها في خندق الماء ، إلى غير ذلك من حوادث كنت فيها محاطاً بالأصدقاء و الأعداء . وتذكرت ذلك الشعب الذي بدأ ُيحبني ويجلّني ، وعصابة الستة وقد فارقوا كلهم هذه الحياة إلا واحداً لعله الآن يتنقل من بلد إلى بلد يحرك المؤامرات والدسائس ويقترف أفظع الجرائم والآثام .

ومن الغريب أنى كلما ذكرت اسم «روبرت» أو فكّرت فيه جرت يدي عفواً إلى مسدسي أو سيفي ، وهتف بي هاتف أن لا يزال بيني وبين ذلك الفاجر الجسور حساب يجب أن يناقش ، فأمعن في التمرّن على الضرب والطعن استعداداً ليوم اللقاء .

ومرة في العام أذهب إلى «در سد» فيوافيني إليها صديقي الحميم «فرتز» فنمكث معاً أسبوعاً يقصّ عليّ فيه كل ما يحدث في عاصمة «روريتانيا» ويطلعني على أخبار الملك وأخبار «سبت» ولا سيما أخبار الأميرة «فلافيا» ويحمل إلىّ منها في كل عام علبة صغيرة

وُضعت فيها وردة حمراء ، ولُفّ على ساق الوردة ورقة كتب عليها هذه الكلمات الثلاث : «رو دلف ـ فيلافيا ـ إلى الأبد» ثم يحمل منى إليها مثل تلك العلبة ومحتواها ...

أتراني أراها يوماً؟ وأكحل الطرف بوجنتيها الورديتين ، وشعرها الذهبي ، وأمتّع سمعي بنبرات صوتها الساحر؟ تلك أمنيّتي الحبيبة فإن لم يحقّقها لي القدر في هذه الدنيا فلعل الله يحقّقها لي في عالم الملكوت...

رقم الإيداع	١٩٩٧/١٥١١٣
الترقيم الدولى	977-02-5545-9 ISBN

٧/٩٧/١٢٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

أولادنا

مجموعة طريفة يختص كل كتاب منها بقصة واحدة تفيض بالمغامرات والحوادث العجيبة المملوءة بآيات البطولة والشجاعة والإقدام.

صدر منها

١ – عمرون شاه .
٢ – لملكة السحر .
٣ – كريم الدين البغدادى .
٤ – آلة الزمن .
٥ – الأمير والفقير .
٦ – كتاب الأدغال .
٧ – بينوكيو .
٨ – نبوءة المنجم .
٩ – رابن هود .
١٠ – دون كيشوت .
١١ – ايفنهو .
١٢ – جزيرة الكنز .
١٣ – كنوز الملك سليمان .
١٤ – سجين زندا .
١٥ – الزنبقة السوداء .
١٦ – مون فليت .
١٧ – مقبرة الأفيال .
١٨ – الربان بلود .
١٩ – تيودورا .
٢٠ – أوليفر تويست .
٢١ – دافيد كوبر فيلد .
٢٢ – فى مهب الريح .
٢٣ – الفخ الذهبى .
٢٤ – عودة المحارب .
٢٥ – حصان عرادة .
٢٦ – نساء صغيرات .
٢٧ – توم سوير .
٢٨ – الأربعة الذين سرقوا الزمن .
٢٩ – الربان الجرىء .
٣٠ – العم نعناع .
٣١ – أم حنان .
٣٢ – كوخ العم توم .
٣٣ – سميراميس .
٣٤ – صديقى فوق الشجرة .
٣٥ – الطفلة المدللة .
٣٦ – الأرض الغامضة .

دار المعارف